

الكتاب الأول

قصص



البعثة

أحمد حمدان



البعثة

أحمد حمدان

مقرر لجنة الكتاب الأول :

خيرى شلبى

مدير التحرير :

منتصر القفاش

المشرف الفنى :

هشام نوار

الكتاب الأول

- ١١١ -

البعثة

قصص

أحمد حمدان

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٩

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

حمدان ، أحمد

البعثة : قصص/ أحمد حمدان

القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٩.

١٥٦ ص ، ٢٠ سم (الكتاب الأول ؛ ١١١)

١ - القصص العربية

(أ) العنوان ٨١٣

(ب) السلسلة

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٠٣٦٢

الترقيم الدولي : I.S.BN: 978 - 977 - 479 - 258 - 3

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 27352396 Fax : 27358084

البعثة

عند أول بيت فى أول شارع فى بلدنا أسند عبد اللّه الصياد ظهره إلى نخلتهم الملساء العالية المائلة النحيلة ، ومدّ ساقيه وفرج بينهما فرجة تسمح لذيل قاربه الحديث الصنع – أو الذى ما زال رهن الصنع – بأن يستقرّ ، بعد أن كفأه على بطنه وشرع يسد الفراغات التى خلّفها عدم توازى ألواح خشب السنط الردئ الذى صنع منه القارب الجديد .

كانت خيوط الكتان المنتفشة مستقرة قرب فخذ الصيّاد وعلى مقربة منها أيضًا .. خلف طلمبة الماء الحمراء التى لا تعمل وضع الصياد حُقًّا ملأه قاراً .. وما على عبد اللّه إلاّ أن يغمس الكتان فى الحُقّ حتى يتشرب بالقطران ، ثم بسرعة وحذر يحمله ليحشره فى فراغات خشب القارب مستعملاً إزميلاً من الصلب يدق على مؤخّرِه بباطن كفه حتى يملأ الكتانُ المزفّت الفراغ كله .. وكلمة « كله » هنا تعنى كله فعلاً .. لأن أية كلمة أخرى فى هذا المقام تعنى الغَرَق .

حشا الصيّاد « كل » فجوات القارب بالكتان المزفّت حتى غدا مصمتًا لا تنفذ منه قطرة ماء واحدة ، وعندئذٍ ، شرع يطليه باللاكيه الأخضر مستخدمًا فرشاة قديمة كان قد استعارها منذ سبع سنوات من صديق له يعمل نقّاشًا بالبندر ، ولما نسى هذا مطالبته بها ، عدّ الصيّاد نسيانه تسامحًا ، فضمّها إلى عدّته التى أشرت إليها كلّها

تقريبًا .. الإزميل ، والكتان ، والقار ؛ واعتبار الكتان والقار من قبيل العدة .. أى رأس المال الثابت .. ليس خطأً اقتصادياً فاحشًا .. فهذه الخامات عند الصياد لا تكاد تنفد ، إنها عنده كالنيل .. مهما اصطدت من سمكه فإنه لا يشهر إفلاسه .

تم الطلاء بعون اللّه .. واعتدل القارب من انكفاءته الإجبارية وبقى الإجراء الأخير ... ، صنع متكأ المجاديف عند خاصرَة القارب وتبطين جوف المتكأ بالمطاط الصناعى حتى لا يصرّ الخشب عن التجديف ، والمطاط الصناعى هذا يضاف أيضًا إلى عدة عبد اللّه ؛ فهو لا ينفد ، إلاّ إذا توقفت إطارات السيارات فى بلدنا عن الانفجار ... إذا تم التبطين .. أصبح الصيّاد مستعداً لتجربة القارب .

* * *

عبد اللّه الصياد لا يكتفى بالصيد ؛ فهذا عمل لا يضمن إلاّ دخلاً متقلّبًا ، كما أن الأمراض لا شك ستغزوه إن هو لم يحفظ ساقيه من البلل فى سنه هذا فالرجل فوق الأربعين ؛ لذا قرر عبد اللّه أن يكون ليس فقط صياداً ، بل صانع قوارب ، يصنعها ويجربها أسبوعًا أو أسبوعين ، وهو لا يجربها ليطمئن نفسه ، فهو واثق من تمكُّن صنعته ، لكنه ينشد من هذه التجربة عرض إنتاجه الجديد على الصيّادين الذين سيكتشفون - حين ترى أعينهم قاربه - أن قواربهم قد تهالكت

وأن المجداف يصرُّ جداً عند تحريكه ، كما أن الدَّفة بها شروخ ، وعندئذٍ تعقد الصفقة ، ومبروك يا أبو حلمى .. اللَّه يبارك فيك يا عبد اللَّه .

* * *

أبناء الصيّاد يتيهون بأبيهم جداً .. تيهًا لا يوازى البتَّة حقيقة وضعه الاجتماعى المتواضع ، ولا يتناسب إطلاقًا مع بيته المسقوف بالجريد ولا ثوبه الحافل بالثقوب والرُّقع .. لكن عقول أطفاله لا تعرف هذا كلّه ولا تعوِّل عليه ... إنهم يعرفون الحكايات ويحبونها ..، وقد حكى لهم جدهم لأمّهم كثيراً من قصص ألف ليلة .. ومنها قصة عبد اللَّه البرى وعبد اللَّه البحرى .. تاركًا الصبية يعتقدون أن أباهم هو البطل الذى تحكى عنه الحكايات ، فصاروا يختالون على الأنداد بهذا جداً ..، ولم يكن يدهشهم أن باقى العيال لا يعرفون ألف ليلة هذه ..، فقد كانوا يعتبرون هذا امتيازاً لهم وحدهم من دون سائر عيال الدنيا .

كانت أيام تجربة القارب آثر عند أولاد عبد اللَّه الصياد بكثير من أيام صناعته ؛ إذ فى أيام الصنع يجلس الرجل لصق نخلته ذات البلح الأصفر الزعفرانى ، فيمسى طلوعها أمراً مستحيلاً عليهم ؛ فرقابته لهم من موقعه أسفل النخلة تمنعهم من المغامرة بالصعود إلى أعلاها ، فقد كان مرتقاها زلقًا .. وكثيراً ما هوى أمهر « القرود » وهو يتسلقها .

أما فى أيام التجربة فإن عبد اللّه ينفلت بالقارب الجديد من النجمة .. فيلقيه فى النيل ، ويجدف ويبحر وينثر الشِّباك ويحتال على السمك ، وحينئذٍ يخلو لهم الجو للصعود المحفوف بالتشوق والهتاف الحماسى ، ومخاطر السقوط .. فيظل قلب الواحد منهم يتسارع خفقانه كلّما رقت أقدامه العارية موضعًا أعلى فى النخلة .. حتى يصل إلى سدرة المنتهى .. وعندئذٍ يتخيَّر لنفسه موضعًا آمنًا من السِّلّ الذى عليه أن يتحاشاه وأعشاش النحل الذى عليه أن يحيِّده ويمهّد لنفسه متكأً من الليف بحيث يجلس فوق أقحاف الجريد متوازيًا غير مضطرٍّ لأن « يسند » نفسه ، فتصبح أياديه طليقة .. ولحظتئذٍ يبدأ الغزل .. فيداعب سلاسل الذهب .. وينتقى .. ويتحسس .. ويشمّ .. ويتذوق .. حتى إذا ما تمت الفتنة أغمض عينيه وراح فى غيبوبة كالمخدر .. ونسى جمهور الصارخين من قاع النخلة المنادين بنصيب من المتعة .. فيفيق من سكرته .. ويبدأ فى نثر النعيم على العيال .. ولا ينزل إلا بعد أن يكون قد شبع وأشبع جيوبه .

إذن كان طبيعيًا جدًا أن يكون موقفهم من النخلة شبيهًا بحالة المريض بالفصام ، فإنك إذا كنت تراهم يقلبون شفاههم للنخلة احتقارًا فى أيام حشو القارب بالكتان حيث الرقابة تمنعهم من لمسها .. فإنك تجدهم يهرولون نحوها فى أيام التجربة كالمجانين ، وحين يعود الصيّاد من جولته التجريبيَّة مساء بقُفَّة محترمة من البلطى والقراميط وتشرع الأم فى تنظيفه بالمقص وردمه بالدقيق وقَلْيه حتى يمسى مقَرمشًا

– تماماً كما يحبّه عبد اللّه .. فإنهم لا يأكلون .. بل فقط يشربون الماء بكميات هائلة لأن أكداس البلح التى ابتلعوها طوال اليوم جعلتهم عطشى كالصائمين .

* * *

الصياد كما أشرت آنفًا مقيم فى بلدنا ... ولكن أين بلدنا هذه ؟.

فى الحقيقة بلدنا معروفة جدًا .. بالقدر الذى يمكن به اعتبار عواصم العالم القديم معروفة ومشهورة .. كانت بلدنا عاصمة لمصر فى عصر التوحيد ... التاريخ يعشقها .. وعلم الديانات يهيم بها .. أما الجغرافيا ، فلا تعلم عنها شيئًا .. وكذلك مشاريع العمران ... طرقها وبيوتها ومدارسها ووحدتها الصحية والسنترال بائسة لدرجة مروِّعة .. ليس فيها بيت واحد فيه عزّ أو فخفخة .. اللهم إلاّ بيت البعثة الأمريكية ... نعم البعثة الأمريكية ... منذ عقود وهى عندنا مقيمة تنقب عن الآثار .. إذا وجدت شيئًا فنحن لا نعلم شيئًا ، إلاّ حين تهتز البلد تحت وقع عجلات سيارات مصلحة الآثار والإذاعة والتليفزيون .. تأتى لتصوِّر الكشف والمراحل والقيمة التاريخية ، فتنتعش الكافتيريا والمعدية – التى تنقل السيارات والناس من الشاطئ الغربى إلى الشرقى للنيل – من الرسوم والبقاشيش .. ثم لا شىء ... لا شىء إلاّ الأوبة السريعة إلى الهدوء الطويل الذى تسبح فيه كل القرى ...

بيت البعثة الأمريكية فخم جداً .. هو ڤيلا بُنيت على النسق الإيطالى واستنبتت فى حديقتها نباتات نادرة معظمها استوائى ، الڤيلا تطل على النيل مباشرة ، ولسور حديقتها باب يفتح على الشاطئ يستطيع من خلاله الدكتور - هكذا يسمى الناس عندنا الخبير الأثرى الأمريكى الذى يرأس البعثة فهو دكتوراه فى الآثار - أن يمارس هوايته الأثيرة فى صيد السمك النيلى بسنار وخيط مثبتين فى عصا من الغاب .. منتهى البساطة ... إرضاءً له تجوب قوارب هيئة الثروة السمكية ساحل الڤيلا لتنثر غذاء الأسماك ، وشتلات لنباتات مائية تستقر فى القاع فيتجمع حولها السمك ؛ فيكون الصيد بالسنار ساعتئذ أمتع ، كما أن وجود هذه النباتات يسمح للسنار بأن يعلق بها فتطفو على السطح مشكلة « تخليصه » منها ، فيتطوّع أحد أبناء جيران الدكتور ، ويخرج من هدومه ليصير بلبوصًا ثم يغطس ليبقى فى القاع مدة أطول مما تحتمله رئة أعرق سباح أوليمبى ، وفجأة يخرج بالسنار ويقدمه للدكتور .. فيسعد هذا بتلك المغامرة الطاردة للملل .

أدى العمل الدؤوب لقوارب هيئة الثروة السمكية إلى جعل المربع المحيط بالڤيلا أغزر بقاع النيل سمكًا .. فما المشكلة إذن إن ألقى عبد اللّه الصياد شباكه هناك ؟ أليست الأنهار من المرافق العامة بطبيعتها كما يقول فقهاء القانون الإدارى ؟

* * *

حين جــاء الدكــتــور إلى بلدنا لم أكن ولدت بعــد .. لكن من كــان معاصراً لأيامه الأولى من بني عمومتي .. أكد لي أن أكثر ما كان يفجِّر الضحك في بلدنا في تلك الأيام هو طريقة نطق الدكتور للكلام العربي .. سالامو آلايكم .. شوكران .. ساباخ الخير .. وغيرها .. كانت شفتاه وأشداقه وسائر قسمات وجهه تعاني عذاب المران على مخارج جديدة .. دقيقة .. ذكية ، ليس في تعلّمها باب للهزار ، أمّا الآن فبوسع الدكتور أن يردح ويغني ويكيل السباب البذيء بدقة وحرفنة منقطعتي النظير .. هذه عادته - على ما علمنا من خفيره الخصوصي - حين يشرع في تعلم شيء يمضي فيه حتى يتقنه .. لذا فإنه فيما يتصل باللغة مثلاً .. تجد في مكتبته دفاتر حاوية لكثير من مفردات العامية المصرية ، ومصنَّفة نوعيًا بمهارة فائقة ومفهرسة هجائيًا على حروف المعجم فعندة مثلاً دفتر مدوَّن على غلافه « أمثال شعبية مصرية » وآخر عليه « أزجال أطفال » ، بل وثالث مدوَّن عليه بكل جرأة « نكات جنسية من البيئة المصرية » وقد أثار هذا الدفتر الأخير فضول الخفير ففتحه وأذهله أن يرى فيه كل بذاءات الشارع والفراش والقهوة والغيط ... ولو كان الخفير دارساً لأيٍّ من العلوم الإنسانية لكان هذا الدفتر مرجعًا بالغ الخطورة « يرصُّه » ضمن قائمة المراجع في أطروحة للماجستير .. لكنه كان مع الأسف ، بالكاد يفك الخط .. ومع الأسف الأكبر فإنه كان يعدّ قدرته هذه المتواضعة على القراءة مصدر فخر على كثير من لدّاته الذين يحملون إلى الآن في جيب الصديري . أختامًا نحاسيَّة صنعها

لهم زنكوغرافى السعادة بميدان البوستة بالبندر يوم السوق لأجل الضرورات التجارية ، ولكى يوقعوا بها على « حجّة » لابد أن يبصقوا مرتين .

عادة الإتقان هذه لم تكن لتقنع بالظهور فى رغبة الدكتور فى تعلم العامية المصرية فحسب .. بل قفزت فى هواية طلوع النخل .. حتى صار وهو فى الستّين يتسلق أعتى نخلة في البلد كالشمبانزى بعد أن علّمه أمهر الطّلاعين « أو المطلعين فالإطلاقان فى بلدنا سواء » ، ثم غابت هذه العادة وبعد ذلك عادت لتظهر فى نزوة صيد السمك الأخيرة التى بدأها منذ نحو شهرين .. ولم يرض حتى صار يجمع من السمك مقداراً يملأ أكبر آنية المطبخ اتساعاً .

بعض الخبثاء من روّاد قهوة صالح القريبة من ڤيلا الدكتور مضوا يشككون فى قدرات الدكتور ومواهبه ... فالعربى .. حتى الحمار يمكنه أن يتعلّمه .. وهل الكلام صعب ؟.. حتى العيال الصغيرة تشتم وتروح وتقول النكت « الوسخة » والأمثال القبيحة .. أما النخل .. فالكل يعلم أن هناك من يقلّمه له ويشذّب له جريده حتى يطلعه كالسلالم .. ثم إنه لا يطلع أى نخلة .. هل جرّب مثلاً نخلة عبد اللّه الصياد ؟ واللّه لو فكّر لانكسرت رقبته !.. وأما صيد السمك فمن منا لم ير قوارب « الهيئة » وهى تلقى فى قاع الماء أمام باب الڤيلا بأجولة العلف ؟ وإلاّ فهل تتمرغ أسراب السمك أمام الڤيلا حبا فى شعر الدكتور الأحمر ؟ أم تراه «قطباً» والسمك الكثير كرامة ؟.. مدد سيدنا الدكتور مدد !

* * *

أيّا ما كان واقع الأمر بشأن اكتظاظ السمك أمام شاطئ الڤيلا كحيتان سبت اليهود ، فإن عبد اللّه الصياد لم ير بأسًا فى أن يحوم بقاربه الجديد الأخضر فى مربّع الخير هذا .. وبالفعل شرع الرجل يمدّ شبكته فى هدوء وترقب وتفاؤل .. وما إن أكمل نشرها فى الماء على شكل دائرة مفرغة الجوف حتى انتصب واقفًا على قاربه فى وسط الدائرة ... وطفق يضرب الماء بعصاه الطويلة « المِدْرَة (*) » التى طولها « قصبة » أى ثلاثة أمتار ونصف المتر ... يضرب الماء بغشومية واندفاع وكأن الماء ذبيحة منفوخة تنتظر السلخ ... وهو بهذا الضرب يحثّ السمك على الفرار من وسط الدائرة إلى محيطها .. حيث الشبكة ... منبسطة فى انتظاره ليعلق بها بكل غباء .

على صوت ضرب الماء بالعصا المذكورة تنبّهَ الدكتور فهرول من مكتبه إلى الحديقة ثم إلى باب الڤيلا – فقد كان يعرف دلالة صوت بطش المدرة بالماء – فوجد عبد اللّه متلبِّسًا بالصيد من المياه الإقليمية لمقرّ البعثة .. جريمة دولية بكل المقاييس ... صرخ الخبير الأثرى :

– انت يا نطع !.. بتعمل إيه عندك ؟

(*) اسمها فى الصعيد عود قنا (لعلها مشتقة من القناة : الرمح ؛ للشبه) ، لكن الاسم البحراوى (مدرة) زاحم الاسم الصعيدى فى كثير من القرى .

أجاب الصياد بهدوء وكأنه لم يسمع الإهانة :

– باصطاد !

– ما أنا عارف إنك بتتنيل تصطاد .. أمّال يعنى بتلعب سيجا .. امشى من هنا .. ممنوع تصطاد هنا .. اجرى بعيد .

قال عبد اللّه ملطّفًا :

– مش كده !.. ما يعملوهوش كده !.. ده بحر ربنا والأرزاق على اللّه .. هى الڤيلا هاينقص منها حته ولا هاينقص منها حته !

كان الدكتور يحفظ سبابًا كثيرًا كما أسلفنا ... لكنه لم يتعلم أبدًا متى ينبغى عليه أن يطلقه ... فترمومتره الذى يستخدمه فى قياس انفعال من يحدثه .. كان دومًا لا يعمل ... الزئبق فيه مجنون ... مرة يقفز ... ومرات لا يتحرك بالمرة ... كلمة صغيرة قد تجعله يثور ... وأحيانًا تهينه وتسرقه عينى عينك فلا يفهم كأنه عنزة ... لكنه هذه المرة قفز بجنون ؛ لذا فإن « الخبير » تهور وقال :

– انت ابن .....

ووصف المرحومة أم عبد اللّه بما لا يليق أبدًا .. وكرامة المرحومة عند عبد اللّه دائمًا خارج دائرة المفاوضات .. لأجل هذا فإنه انفلت من عقاله وانطلق بسب ملة الدكتور ويلعن جدوده ، ويعايره بأخيه الشاذ ،

وأمـه التى كانت تخـون المدعـوق والده مع سائق الشاحنة الزنجى فى الولاية التى جاء منها واسمها أبصار إيه ... و ...

أذهل الخبيرَ كمُّ الفضائح التى قذف بها عبد اللّه فى وجهه ... وسأل نفسه ... كيف علموا بكل هذا ؟.. حتى الصياد الذى يجلس باللباس فى أول البلد ويده المسوّدة من الزفت أقذر من حُجْر الأرنب يعرف عنى كل هذا ؟..

صرخ الدكتور وأرسل فى طلب شرطة المسطحات المائية وشرطة السياحة وشرطة كل شىء ليقبضوا على هذا الحثالة الجرىء ...

لكن الوسطاء فى بلدنا لا يمتنعون ...

فعلى الفور تعلق الخفير - الذى يفك الخط - بأُذُنِ الخبير ليؤكد له أن القبض على الصياد لن يجديه شيئًا ... فعقابه سيجعل البلد تكرهك يا دكتور ... ومن يساعد البعثة فى أعمال الحفر سيمكر ... وربما أفسد عملكم ... أما باعة الخضار والجبن فهم أصهار الصياد ... وربما يعنى .. باعوا لك طعامًا ... يعنى ... من يدرى ... كما أن ما أثاره من كلام يا دكتور - وإن كان غير صحيح طبعًا - فإنه إذا ما عوقب فسينطلق به معربداً مثرثراً .. فيعرفه كل أهل البلد .. أمّا إن أنت أحسنت إليه ... فالعكس بالعكس .. وكُلُّك مفهومية يا دكتور .. ولاّ إيه ؟

قلنا إن ترمومتر الدكتور لا يعمل .. وإذا كان من النادر أن يقفز زئبقه .. فإنه لا بد أن يكون عبد اللّه محظوظًا جداً .. لأن الدكتور فتنته

عبارة « إن أنت أحسنت إليه فالعكس بالعكس » ...فقفز الزئبق للمرة الثانية خلال دقيقة واحدة ... فرفع سماعة التليفون .. وأجبر المصلحة « أى مصلحة الآثار » على أن « تخلق » له « أى لعبد اللّه » وظيفة فهو بالتأكيد فقير لا يجد ما يأكله ... فلا بد أن يعين فى عمل يضمن له راتبًا ... صحيح أنه « لا يعرف الألف من كوز الذرة – وهذه مدونة فى دفتر الأمثال فى مكتبة الدكتور ، لكن عينوه ... هذا تكليف !

ولأن مكتب المصلحة فى بلدنا ليس بحاجة إلى موظفين أو عمال أو فراشين ... فإن عبد اللّه منذ تسلَّم العمل .. وهو فى الحقيقة بلا عمل .. يذهب فقط فى آخر الشهر ليقبض مرتبه ثم يعود إلى مجلسه الدائم تحت النخلة ... ليراقب أولاده الطامحين إلى مغافلته .. ويتذكر – دون شوق – أيام الكتان والإزميل والقطران والشباك وضرب الماء ...، ويبوس يده شكرًا على هذه « اللقِيَّة » التى لم تكن فى الحسبان ... أمَّا الصيد فليغر فى داهية ... طول عمرنا نصيد .. فماذا كسبنا ؟... وأما سبُّه للمرحومة ... فماذا خسرنا ؟ إن الشتيمة – كما يقول الدكتور فى دفتره فى باب الشين – ما بتلزقْش !

* * *

هو الوجيه الأمثل .. بل الأوحد في بيت الحنّاوى غير العريق ، مهندس زراعى هو ... يناديه الناس بحضرة المعاون .. وهذا لقب قديم لكنه فى قانونهم علامة الإجلال الكامل .

محترم هو .. وثقة .. ثم إنه أنيق .. ليس جداً .. لكن يكفيه أنه كان ضمن أول ثلاثة فى بلدنا لبسوا بدل ... دخلت المياه والكهرباء بيتهم منذ زمن بعيد .. فهو رب أسرة « مبسوطة » تأكل الفاكهة أسبوعياً .. وجميع الأولاد بلا استثناء في المدارس .. كما أن البيت ممحّر من الخارج ... وعلى الواجهة نقش من الجصّ بارز لمقطع قرآنى كريم ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ .. وقد ظل النقش جميلاً رغم العناكب التى استعمرت تجويفات أحرف الآية وعششت وباضت واغتالت أرتالاً من الباعوض والهاموش .

لأن مندرة بيته كبيرة فإن عائلة الحناوى قد جعلت هذا من أهم مبررات تنصيبه عميداً للعائلة .. لأن بيت العميد لابد أن يكون شامخ الجدران والأعمدة ، وممحّراً من الخارج .. ومندرته فسيحة .. فى هذه المندرة تخطب البنات ، وتباع القراريط ، ويتعانق الأخصام بعد العركة .. فالعميد الوجيه المعاون .. المهندس عبد المنعم .. عابمنعم كما ينطقها الناس .. أو منعم كما تنطقها زوجته .. أيّا كان الاسم أو اللقب

أو الصفة أو الدلع – هو الذى حكم على نفسه – إذ أكمل تعليمه واقتنى دارًا رحبة – بأن يكون شاهد كل هذه التصرفات ... كثيرًا ما كان هو وكيل العروس رغم أن أباها حىّ يُرزق .. لكن لأن الأب أمى ... وفى بطاقته العائلية مكتوب بالقلم الحبر الأسود بالبنط العريض عرض واحد مللى « فلاح » .. فإن الأفضل أن يكون الوكيل هو العميد .. ، عثمان يشارك عبد الحميد على بقرة فيشهد العميد على واقعة قبض الثمن .. والاتفاق على الشراكة ؛ فشهادته مانعة للجحود عند المشاكسة ؛ فمنذا يجرؤ على نقض مشارطة كان شاهدها العميد ذاته ؟

إذا اقتادت الشرطة ولدًا من الحناويّة من باب الاشتباه أو لعدم حملة بطاقة تحقيق شخصية – وهذا أمر شائع الحدوث – فإن الأب يترنّح ولا يصنع شيئًا .. والأم تلطم الخد وتشق الجيب وتكشف الرأس وتدعو على المأمور ... أما المعاون ... فيمضى إلى المركز فى شهامة .. ويتوسط للولد ، فى خزانة ملابسه مائة عقد ، واتفاق ، وإيصال أمانة ، وإقرار ومحضر حيازة ، وقائمة منقولات زوجية ، ورخصة سلاح ، ونماذج فارغة لكمبيالات وعقود بيع عرفية لأطيان زراعية وأراض فضاء ... هو مستودع السر.. الشاهد .. الثقة ... الحجة ... المؤتمن ... لهذا تراهم .. يجلونه ويقدمونه ... لا عن حب .. بل لأن الأمور هكذا دومًا تسير .. يرفعون مقامه ... ويقفون له .. ويهادون زوجته فى المناسبات .. أما أبناؤه .. فإنهم حين يركبون إلى البندر للمدرسة .. يجاملهم سائق السيارة فيجلسهم فى « الكابينة » مع الموظفين وأكابر

الناس.. ولا يدعهم أحد مطلقًا .. يجلسون فى مؤخر السيارة على الصّفين الخشبيَّيْن المتقابلين حيث التزاحم والتدافع بين الركاب وأقفاص الأوز والأرانب وآنية الجبن وبلاليص العسل .

* * *

بعض الحمير يعض .. وبعضها يرفس .. أما حمار جابر الحنّاوى فإنه يعضّ ويرفُس ...

عضّ حمار جابر الحناوى فخذ جاموسة بكر الحناوى ، بينما المسكينة تشرب من الدلو فى تلذذ وأمان ... وكان الحمار مريضًا .. فانتقلت العدوى إلى الجاموسة ... وقرر الطبيب البيطرى أن أجلها بات قريبًا ...

اجتمع الحناوية فى جلسة سريَّة ببيت العميد وقرروا أن تباع الجاموسة .. وفى أول سوق .. قبل أن يستفحل المرض ...

بعد الفجر جاءت السيارة « المخصوص » وصعدت المصابة إليها بعد أن اعتلت « سقالة » هى فى الأصل باب قديم ، السوق بعيد فى أقصى « الغروب » أمّا بلد الحناوية ففى « الشروق » .

معايير تقسيم البلاد إلى بلاد شروق وبلاد غروب ليست واحدة ... فى نواحٍ تجد المعيار هو خط السكة الحديد ... وفى بعض منها يكون الفاصل هو الطريق الزراعى ... أمّا فى العدد الأكبر منها فإن النيل هو

القاسم ... وفى الجميع .. فإن البلاد التى تقع إلى شرق النيل أو الطريق الزراعى أو شـريط القطار ، تكون بلاد شروق .. والتى تقع إلى الغرب منه ... بلاد غروب . أكثر ما يميز بلاد الشروق .. أن المدافن – غالبًا – فيها ؛ لذا فإن المعدّية إليها – إذا كان النيل هو القاسم – تكون مشحونة بعواطف الحنين والذكريات والشجن ... أما بلاد الغروب فإن فيها أسواق الخضار والأعلاف والبهائم ؛ لأجل هذا تجد العبور إليها مغلّفًا بأجواء الحذر والتحفُّز والشد على الجيوب تحسُّبًا للسرقة .. مع الاستعداد الكامل للحَلف كذبًا بالطلاق بالمحرمات لتأكيد أن البقرة « عُشْر » أو أن النعجة ثمنها « تلتاشر » أى بألف وثلاثمائة جنيه نقدًا .

وصل بكر بجاموسته فى أول السوق ... عضة حمار جابر فى فخذ الجاموسة غير ظاهرة ... وحتى لو اكتشفها المشترى فإنها غير مؤثرة ... فليست هذه أنياب أسد .. ومرضها لن يعلم بشأنه أحد .. هذا نوعًا ما غش .. لكن بكرًا ليس نبيًا .. والعيال فى البيت عريانة ولا ذنب لهم .. إنه حمار جابر المفترى .. هو السبب .. اللّه لا يسامحه .

كانت صدمة بكر مروّعة حين اكتشف أن السوق كله تقريبًا يعلم أن جاموسته مريضة وأنها فى ظرف أسبوع على الأكثر سيلقيها صاحبها فى الترعة .

كاد بكر يجنّ .. كيف علم الناس فى السوق بهذا ؟.. منك للّه يا جابر .. لولا حمارك ما حدث هذا كلُّه .

حسبها بكر فى دماغه .. إنه لو عاد بالجاموسة ، فسيخسر ثمنها كاملاً ، أما إن باعها بحالتها .. فسيضيع عليه فقط فرق السعر .. أمّا المشترى العالم بالمرض فسيبيعها لتوه لأى جزار ضلالى ولن يخسر هذا شيئًا .. بل إنّه يقينًا سيكسب .. أنا وحدى الخاسر يا ربى ؟

باع بكر الجاموسة بأقل من حقها بنحو ألفى جنيه .. إنه بالطبع لن يتحمّل هذه المصيبة ... بل سيذهب فور وصوله بلدهم إلى العميد ... الذى سيحكم له لا ريب بالفرق بل وبأجرة السيارة أيضًا .

* * *

وصل بكر بلدهم قبل أذان العصر بقليل .. وفور وصوله رأى مشهداً فظيعًا ... لم ينسه بعدها أبداً ...

كان الحناوية كلهم عند أول البلد ... حتى النسوان على الجسر واقفات بالسواد كالغربان ... من يا ترى مات ؟ استر يا رب !

وقفت السيارة مذعورة ... ومن جوفها نزل بكر مهرولاً يسأل أولاد العم ... فلم يردّ أحد ... كانت الفاجعة فيما هو ظاهر .. كبيرة .. والحزن غير مسبوق .. وولولة النسوان أعلى بكثير من المعتاد .

بكر ليس غبيًا .. لذلك فإنه قرأ من المشهد على الفور أن الميت هو المعاون .. ولدهشة كل الحناوية .. فإن بكراً جثا على الأرض .. ووضع

التراب على رأسه .. وأخذ يعوى بصوت أعلى من صراخ زوجة العميد وشقيقاته .. تمرّغ فى التراب وراح ينتحب :

- بيتى اتخرب .. وحقى راح ... جابر ضلالى ومفترى .. ومكانش هاينصفنى منه غير المعاون .. عليه العوض ومنه العوض .. جاعوا العيال .. وحسبى اللّه ونعم الوكيل .

* * *

بعض الصيادين يسمونها « الجوابى » وهذه تسمية مفهومة أى أنها « تجبى » ، أما اسم الفوانيس فلا يدل على معنى يرتبط بوظيفتها أو شكلها أو طريقة استخدامها .. لكن نواحِينا يسمونها الفوانيس ، وعنهم أخذت التسمية فهذا اسم فيه بهجة ، أما الجوابى ففيها كل معانى الجمع المنظم والتحصيل القهرى والجباية المفروضة كأنها إتاوة ، ومن منا يحب رجال الضرائب ؟

الفوانيس – إن كنت لا تعرفها – فخاخ سَمَكِيَّة تشبه البراميل ، فهى أدوات صيد بدائية تصنع من حلقات معدنية تشكل هيكلاً أسطوانياً تكسوه شبكة ضيقة الفتحات ، ولكلّ فانوس مدخلان كالأقماع ... دخول الأسماك فيهما ميسّر جداً لأن فوهتهما مقعرة .. مائلة إلى الداخل .. أما الخروج فمستحيل .

يضع الصياد فانوسه فى ماء ضاحل ... مخَشوراً بين سيقان نباتات النيل .. ؛ حتّى لا يجرفه التيار .. ويدعه كمينًا ثابتًا للأسماك التى تكثر عند سيقان هذه النباتات طلبًا للغذاء من أوراقها وقشور سيقانها .. وبهذا تؤدى تلك النباتات وظيفة مزدوجة ... مثبِّت للفانوس .. وطُعم طبيعى مجانى للسمك ... ثم يمرّ كل يوم أو يومين .. ليستخلص من الفانوس ما حشر به من أسماك ليجمعها فى دلو « سطل » فيبيعها

إن بلغت قدراً يستأهل الانتقال إلى السوق ، وإلاّ طبخها .. مقلية في زيت بذرة القطن .. أو مسبِّكة في طاجن محترم عامر بالتقليَّة .. وبالهنا والشفا .

* * *

نادى أعضاء هيئة التدريس بمدينتنا .. بورتريه رعوى صرف ، سائر أرضه مسكوّة بنجيل طبيعى دائم الخضرة .. لا يصفرُّ أبداً .. كأنك فى ريف أوروبى ... الظل فى أكثر أرجاء النادى تجود به صفوف أشجار (دقن الباشا) التى تسمح للضوء - أحياناً - بالتساقط من ثنايا أوراقها ليقع على الثياب فى بقع صفراء متلألئة متراقصة لعوب كدنانير المتنبِّى فى شعب بوَّان .. وفوق ذلك .. النادل عربى قح .. بل ليس من النادر أن يكون جاراً أو بلدياّت .. فلست إذن بحاجة إلى ترجمان .

أجمل ما فى هذا النادى .. إطلالُه على النيل .. أنت فيه تعيش فى كنف الطبيعة .. كابن مدلل .. مترف .. لا ينقصه شىء .. يجاورك فى النادى .. دائماً .. زوج من اليمام .. يتناغى ويتهامس فى حب وطيبة ووداعة وسلام ... وقطة بلدى بعيون عسلية صافية عيون من تلك التى أقسم الشعراء أنك ما إن تراها حتى تتمنى أن تضطجع فيها وتنام ... تتمنى أن تستحمَّ فيها فتتطهَّر وتشف وتحلق ... عيون

« تاخد القلوب بالحضن » .. عيون أحبَّت الكل ... لكنها لم تلازم إلاّ عاشقًا واحدًا .. هو بواب النادى .. عم عمران .. أروع بواب يمكن أن تراه فى حياتك .

* * *

عم عمران من قرية بنى محمد .. أول بلد على الخط .. سبعة كيلومترات تفصلها عن النادى ... هذا مشوار بسيط .. يقطعه عم عمران كل يوم .. فنوبته فى الحراسة تبدأ فى أول الصباح .. وتنتهى عندما يؤذن للمغرب .. وهذا من روائع النادى .. فالعمل فيه ليس محدداً ببداية فى ساعة كذا مثلاً .. لا بل النوبتجية فيه موزّعة هكذا .. بالتقريب .. النظام ليس صارمًا .. والجوّ فيه ترحاب وأريحية .. كأنك فى بيتك تلبس جلابية وتأكل الزبادى فى سلطانية من الفخار .

يأتى عم عمران كل صباح من « بنى محمد » مع طلبة المدارس فى سيارة ربع نقل .. توصلهم ثم تعود لتنقل بعض رؤوس الماشية التى يريد أصحابها بيعها فى سوق البندر .. وترجع إلى البلد محملة بجهاز لعروس جديدة ، أو بذور للجمعية الزراعية .. أو موتور جديد لمكنة ريّ شيخ البلد .. كلّ هذا فى نفس السيارات .. الجماد والنبات والحيوان والإنسان ؛ ديمقراطية تُزرى بأكذوبة أثينا ، ووحدة وجود دونها بكثير دونها بكثير شطحات الحلاج .

* * *

وصـول عم عـمـران ودخـوله إلى النادى كل صـبـاح .. حـدث له مـراسـمـه .. وليس هـكذا .. دخـولاً عـاديًا .. القطة البلدى الـودود الولود «نسيت أن أذكر لك أنها ولاّدة .. لكن صغارها التى لا تُعدّ .. عاقّة جدًا ما إن تشتد سيقانها وتقوى على نـطّ الأسوار حتـى تختفى » تهرع إليه فى فرح بالغ .. وتتـمسّح بطرف جلبابه وتنعم بتربيت راحتـه على ظهرها ... البستانية والنُّـدُل يخفّـون لاستقباله فى سعادة ولـهفة كأنه عائد من سـفر بعـيد .. ويدعونه – بالقـوة – ليـفطر مـعـهم ... ويتـمنّع عمـران لأنه أفطر فى بيتـهم قبل أن يخرج .. وعبّ من لبن بقرتـهم حتى ارتوى .. وعـلاوة على ذلك فقـد أكل بتّـاوة كـاملة غمست فى اللبن حـتى شربت الدسم .. لكن عمال النادى وإن كانوا يعلمون أنه قبل الشـخوص إليـهم قـد أفطر ... فـإنهم مع ذلك يرغـمـونه على مـشـاركتـهم إفطارهم الشعبى الذى لا يخلو – أيضًـا – من روعة .. فيـأكل البـاذنجـان المقلى .. والطعـمـية الملهلبة .. والفول المهروس .. ثم « يحبس » بالشـاى الكشرى الأحمر النضيج على نار سيقان العنب فى بـرّاد من الصـاج الأبيض مع عِـرْق يانع مـن النعنـا ع البلدى القصـير الأوراق الذى زرعـه عـم عـمـران – افتئـاتًا على اختصـاص البسـتـانى – فى حـوض الجيرونيا خـصّيصًا لجلسات الشـاى هذه حتى تكتمل متعة الحواس جميعًا ... ثم يبدأ عمله المضنى جدًا .. بأن يجلس على أريكة أنتريه قديم .. وضعها عم عمران لصق باب النادى .. لتكون تكنته التى يكمن فيها للحراسة .. متسلّيًا بتقليب مؤشر الراديو العتيق الرائع الذى أهـداه إليه عميـد كلية العلوم

بعد عودته من البعثة .. راديو خرافى قادر على التقاط مكالمات الهواتف الخلوية ولو كانت مهموسة وإخطارات لاسلكى النجدة والإسعاف لكن هذا تلصص واستراق للسمع يأنف منه عمران فيقلب المؤشر سريعًا حتى يصل إلى مسلسل إذاعى أو أغنية قديمة .. ما إن تنتهى حتَّى يبدأ السأم فى التسلُّل إلى نفسه ، وهنا .. يحكّ الرجل قفاه .. ويجيل بصره فى النادى ... ثم يطرح الراديو جانبًا ... ويقوم إلى مهمته اليومية الأثيرة .. جسّ فانوسه العظيم .. الذى ثبته فى ماء شاطئ النادى بين أحراش الغاب النهرى .. إنه مورد رزقه الإضافى وأهم روافد التجديد فى برنامجه اليومى .

يقوم عمران ويترك الراديو فى حراسة القطة البلدى التى يخونها أولادها ... فتخون هى عمران وتعبث بمؤشر الراديو فى غيابه .. حتى تثبته على موجة قصيرة تسمع منها بوضوح بلاغات النجدة وثرثرة العشاق .. وما إن تلمح الرجل عائدًا من مهمته حتى تحرك المؤشر وتتظاهر بالبراءة ... فيكافئها عمران بسمكتين صغيرتين من غلة فانوسه .

يسير عمران بخطوة مستقيمة .. كالخطوة العسكرية تمامًا وكأنه خفير نظامى ، حتى يصل إلى السور الخفيض الذى يحجز ماء النيل عن أرض النادى .. وبذات الخطوة العسكرية .. يعتلى السور لكن فى رشاقة وخفَّة ملفتتيْن .. ثم فى حركة مفاجئة - حتى لمن رأى المشهد قبل ذلك - ينزع عنه جلبابه .. ويقف لبضع ثوان .. بالسروال الطويل

ذى التكة السمكية .. والصديرى اللامع المقلم بالأبيض والأزرق .. وفى يُسراه دلو معدنى مثقوب القاع – ثقوب ضيقة صنعها عمران عن عمد لتسرِّب الماء دون السمك – ثم يقفز فى الماء .. بعفوية تُوحى لمن لا يعرفه بأن الرجل غشيم أو أنه مقدم على الانتحار .. لهذا كانَ لا يقوم بدورية الجسّ هذه إلاّ حين يخلو النادى من الزوار الغرباء .. أما الروّاد المعتادون فقد ألفوا قفزاته هذه .. بل إنهم ينتظرونها .. ليسألوه حين يعود : الحال عال ؟.. فيبتسم عمران – دائمًا – ويجيب : خير كتير والحمد للّه ... وكثيراً ما يعرض الرواد على عمران صفقة شراء مجزية توفر عليه عناء مساومة تجار السمك .. حتى صارت هذه الصفقات اليومية عادة للرواد من أساتذة الجامعة المقيمين ، بل إن منهم من صار يأتى إلى النادى لا لشىء إلاّ ليحظى بسمك فانوس عمران فى مقابل ثمن معقول يقدر هكذا .. بالتقريب .. دون وزن .. ويدفع هكذا .. دون مفاوضة .. فالفصال يقل البركة .

* * *

تهالَكَ الجسر القديم القائم على النيل والذى يربط شرق مدينتنا بغربها حتى صار مرور سيارات النقل الحاملة لتلال الرمل والزلط عليه مبعث خطر عظيم ... فأضحت إزالته أمراً محتمًا .. وبالفعل تقرر إنشاء جسر جديد فى أول المدينة .. وقد استدعى إنشاء هذا الجسر العلوى الجديد .. نقل وحدة الإنقاذ النهرى التابعة لشرطة المسطحات المائية

من مكانها القديم أسفل الكوبرى المرشّح للإزالة لتصبح ملاصقة للنادى وانتقلت الوحدة بكامل معداتها من زودياكات وقوارب مطاطية وجسور خشبية وبراميل بلاستيكية حمراء ... إلخ .

لم يكن خبر نقل وحدة الإنقاذ النهرى إلى جوار النادى باعثًا على شعور بعينه لدى العاملين بالنادى .. بل شعور مبهم محيّر ... وهذا الشعور غير الواضح لم يكن هناك اتفاق عليه .

نعم كان هناك رضا بوجود « ونَس » وجار جديد ... ونعم كان هناك قلق من مضايقات محتملة للمعيدات وزوجات الأساتذة مبعثها وقاحة فضول نظرات مجنّدى الوحدة العزاب الناكرين لجميل قبول ضيافتهم - راكب بلاش ويغازل مِرَات الرَّيس ، لكن الشعور العام فى النادى - خلاف الرضا بالونس والبرم بالبصبصة - لم يكن شعوراً واضحًا ولا مريحًا .. إلاّ أن هذا كله لم يعكّر صفو النادى ولم يقدح فى كمال روعته .. شىء واحد هو الذى تغيَّر .. إنه برنامج عم عمران .

لاحظ عمران .. بعد أسبوع من قدوم رجال الإنقاذ النهرى إلى جوار النادى .. أن نتاج الفانوس لم يعد كما كان فى السابق ... أيام يدرُّ قدراً معقولاً .. وأيَّام كثيرة .. أقل بدرجة ملحوظة عمّا كان فى السابق .. وأيام ليست نادرة .. يخرج الفانوس فارغًا .. وهذا كله جديد كل الجدّة على عم عمران .. أن هذا لم يكن يحدث من قبل مطلقًا .. كان الفانوس وفيًا فى إنتاجه .. معتدلاً فى غلته .. أمّا الآن فالأمر غريب ..

وخطير بل إن الرواد عجبوا لهذا التغيير .. وساء كثيراً منهم حرمانه من وجبات السمك الطازج التى كان يتحفها بهم فانوس عم عمران .

لأجل الأمانة والحبكة واكتمال الصورة يتعيَّن علىّ أن أذكر هنا أن شيئًا آخر كان قد تغيَّر فى النادى ... شيئًا ... سريًا ... عرفه الجميع ، ومحظوراً ... لم يعترض عليه أحد .

كان النُّدُل « الجارسونات » قد استحدثوا لدى وصول الجيران الجدد نشاطًا موازيًا ... جاءوا بعدة شاى كاملة نصبوها فى زاوية النادى المجاورة لوحدة الإنقاذ .. « غرزة » على هامش بوفيه النادى ... ولا مانع من تسريب بعض المُؤَن من البوفيه إلى الغُرزة حين ينفد الشاى أو يشحّ السكر .. ثم تُردُّ بعد ذلك حين ميسرة ... يعلم النُّدُل جيِّداً أن هذا كلّه غير مصرَّح به .. ولكن النادى كما تعلمون .. ليس خاضعًا لنظام صارم .. وإلا فسيفقد جو الأريحيّة .. ولن يشعر الروّاد بأنهم فى بيتهم .

* * *

زادت مع الأيام حالة الفانوس سوءاً حتى غدا لا يخرج فى أكثر الأوقات إلاّ فارغًا .. وذاع خبر جدب الفانوس بين الرواد .. وكثرت التأويلات والظنون والاقتراحات والحلول .

اجـتـمـع النُّـدُلُ ذات صـبـاح .. وقـرروا بالإجـمـا ع .. تـعليق تـقـديم خدماتهم عـبر الغرزة إلى الجيران الجدد .. ولننـتظر مـا يكون .. إنـها الشهامة البلدى التى لها طعم العسل ..!

إذا كـان العـجـيب أن يكون مَنْ رأى هـذا الرأى هـم النُّـدُل لا عم عمران .. فإن العجب كل العجب فى أن الفانوس قد عاد فى اليوم التالى إلى سابق عهده ...

هكذا إذن !

شا ع الخـبر فى النادى .

وعاد الروَّاد إلى الإقبال على صـفقات السمك .. ولكن النُّـدُلَ هكذا يخسرون ... إن عدة الشـاى أضـحت الآن دون نفـع .. والربح منها أمسـى معدومًا ... عمّرنا ساقية وخربنا طاحونة .

وكما جاء حل أزمة الفانوس من النُّـدُل .

فـإن انفـراج محـنـة الغـرزة جـاء من عم عمران .. إنه مثلهم لم يفقـد الإيثار بعد .

فلتعمل الغرزة يومًا .. وتغلَق يومًا .

وقبل النُّـدُل الاقتراح بالإجماع .

وحدث ما كان متوقعًا تمامًا .. لقد أصبح نتاج الفانوس موازيًا لعمل الغرزة .. إذا عملت الغرزة أنتج الفانوس وإذا وقفت هي أجدب هو .. حتى أَلِف الروَّاد من أعضاء هيئة التدريس هذا الوضع الجديد .. وسمى بعضهم أيام الإنتاج « أيام المدّ » وأيام الجدب « أيام الجزر » ، وصار الواحد منهم إذا جاء إلى النادى .. سأل عمران باسماً :

– النهاردة « مدّ » ولاّ « جزر » يا عم عمران ؟

* * *

هل يمكن أن تكون حوادث التاريخ مضحكة إلى هذه الدرجة ؟.. لا أظن !.. ولكن إذا كان ظنِّي صحيحًا فلماذا يضحك طلبة ثانية ثالث على هذا النحو الصاخب ؟.. إن حصتهم الرابعة هي حصة تاريخ .. أى نعم حصة تاريخ .. وليتأكَّد الناظر - مع أنّه متأكد - فإنه أخرج جدول الحصص من جيب البدلة الصيفى البوليستر الكحلي الرخيصة التى يلبسها فى الأيام العادية - أى فى غير أيَّام المناسبات - لأن فى كمّها لسعة مكواة .. أخرج الجدول .. ونظر فيه .. ثانية ثالث .. الحصة الرابعة .. الأستاذ أسامة .. مواد اجتماعية .. مضبوط .. ما زال مخك صاحيًا يا حضرة الناظر.. ما شاء اللّه .. امسك الخشب .. خبط الناظر على منضدة مكسورة موضوعة فى ردهة الدور الثانى منذ نحو شهر حتى يأتى النَّجار ليصلحها .. ، لكن النجار لم يأت ولن يأتى .. لأن الذى يأتى به .. وهو جاره الأستاذ حسين ضيف اللّه مدرس اللغة العربية .. انتقل إلى رحمة اللّه .. الفاتحة على روحه .. إذن هى حصة مواد اجتماعية .. أى غالبًا تاريخ - هكذا كان ظن حضرة الناظر ، فالجغرافيا عنده ليست إلاّ بضعة جبال وأنهار تشرح فى حصة واحدة أما التاريخ فطويل - والطلبة يضحكون .. لا زالوا يضحكون .. فلماذا يضحكون ؟..

إلى جوار النافذة وقف الناظر كما كان يفعل البصاصون أيام المماليك .. وأصاخ السمع .. فوجد المدرس .. الأستاذ أسامة .. يقول :

– حلوة يا هشام .. جميلة .. مين عنده واحدة كمان .. بس برضه عن نفس الموضوع .. الحُفَر والمطبّات .. مين عنده ؟

طرقع طارق بإصبعه السبابة على ملتقى إصبعيه الوسطى والإبهام وهتف :

– أنا يا أستاذ !.. أنا يا أستاذ !

– قول يا طارق .. بس اوعى تكون نص نص زىّ المرة اللى فاتت .

أحرج طارق جزئيًا .. فأدركه اللفف والفأفأة .. كعادته كلّما أحرج .. وقال وهو يلحق آخر الكلام بأوله ويكرر الحروف ويخلطها ثم يدغمها فيتلعثم :

– المرة دى .. كويّسة يا أستاذ .

لاحظ الأستاذ أسامة أن بجوار النافذة شخصًا يلبس بدلة كحلى رخيصة .. فذهل عن طارق وزرّ عينيه ليتحقق من شخص هذا الواقف المتلصص .. من ؟! إنه الناظر !.. ماذا يفعل عنده ؟... لاحظ الناظر أن الأستاذ أسامة اكتشف وجوده .. فأخرج المنديل القماش الكاروه .. وشرع يتظاهر بالتمخّط .. أدرك الأستاذ أسامة أن الناظر واقف يتسمّع .. فقال فى سرّه لاعنًا : الحقير يتجسّس .. ألا يخجل ؟!

قطع طارق سرحان الأستاذ أسامة .. وتساءل بعد أن كان انشغال المدرِّس عنه قد أتاح له استعادة ثباته :

– أقول يا أستاذ ؟

– آه ؟.. أيوه يا طارق .. قول يا حبيبى .

– بيقولّك – كانت تعليمات الأستاذ أسامة قد صدرت برفع الكلفة عند إلقاء النكت ؛ فنكتة تبدأ « بيقول لحضرتك » لا طعم لها أبدًا – مرة كان فى حُفْرة فى الشارع ، كل شويّة كان يقع فيها واحد .. فيتعوّر .. جه مهندس الحى واقترح أنهم يحطّوا عربية إسعاف جنب الحفرة .. عشان اللى يقع فى الحفرة .. العربية تاخده ع المستشفى على طول ... فاعترض رئيس الحى .. وقال .. عربية إسعاف إيه ؟.. ودى هاتكَفِّى مين ولاّ مين .. احنا نبنى مستشفى جنب الحفرة .. لكن رئيس مجلس المدينة قال .. والله أنتم حمير .. وليه نبنى مستشفى ؟.. احنا نردم الحفرة دى .. ونحفر حفرة جنب المستشفى .

ضحك الطلاب جداً .. حتى دمعت عيون بعضهم .. حتى الأستاذ أسامة ضحك .. واقترب من طارق ليضرب كفّه بكفّه .. لكن الناظر .. دخل .. فسكت من رآه من الطلاب .. وتكفّلت الأكواع والغمزات بإسكات الباقى .. ووقف ثلاثة .. فى التختة الأولى للناظر .. مع أن الأستاذ أسامة .. لم يقل لهم بعد .. « قيام » .

عاد الأستاذ أسامة إلى موقعه عند السبورة بعد أن ضرب كَفَّهُ بكف طارق دون أن يوقف ضحكه .. رغم أن تأثره الفعلى بالنكتة كان قد تلاشى لكنه استمر يضحك هكذا .. من باب العناد .

رحب بالناظر دون حرارة .. بل وبشىء من الاستهانة مما شجع الناظر على أن يواجهه بالاتهام مباشرة .. دون أن يلف ويدور كعادته :

– حضرتك مهمل المنهج والدروس مخليها نكت ؟

سأله أسامة ببرود :

– حضرتك عرفت منين إن احنا كنّا بنقول نكت ؟

زمجر الناظر وهو يكرمش منديله فى قبضته :

– المفروض أنا أسأل وانت تجاوب مش العكس .

رد المدرس بهدوء :

– اتفضل حضرتك اسأل !

سأل الناظر باحتقار :

– تقدر تقوللى دى حصة إيه ؟

بمكر فلاّحى يفوق أى استعباط بَنَادِر سأل المدرس :

– أى حصة ؟

بلع الناظر الطعم .. فانفعل فعلاً وصرخ .. والتلاميذ يراقبونه وهم يخفون الضحكات فى الأكمام :

– الحصة دى .. دى اللى التلامذة كانوا مسخسخين فيها يا أستاذ !

أعجبت اللعبة المدرس فتمادى وتباله وسأل :

– الحصة الرابعة .. النهاردة .. اللى حضرتك دخلت فيها من غير ما تخبّط ؟ اللى شغالة دلوقتى ؟

انفلتت ضحكة من آخر تختة فى الفصل .. اعتبرها الناظر كأنها لم تكن حفاظًا على كرامته .. وابتلع الإهانة .. وقال للمدرس وهو يقدم آخر أوراق صبره :

– أيوه .. اللى شغالة دلوقتى !

عدّل المدرس وضع حزامه لتكون رأس الحزام تمامًا مع أزرار القميص وسوستة البنطلون فى خط مستقيم وهذا تشاغُلٌ مقصود يترجم – بلاغيًا – بأنه أسلوب إنشائى غرضه التحقير لكن الناظر لم يفهم الرسالة بل حَسِبَ فعل المدرس تعظيمًا له – وإلا فلماذا يصلح هندامه ويسوِّى ثيابه ؟.. لكنه أفاق من وهمه على صوت المدرِّس :

– دى حصة نكت .

– حصة إيه ؟!

– حصة نكت .. حـ صـ ـة .. نـ ... كـ ... ت !

– حضرتك بتستهزأ بىّ يا أستاذ ؟!

– لا أنا باتكلّم جد ..!

بفَرْحَة المحارب الذى رأى فى جسد غريمه موضعاً قد انكشف عنه الدرع سأل الناظر :

– اسمها فى دفتر التحضير .. حصة نكت ؟

أجاب المدرس بثقة :

– أى نعم ! ...! اسمها حصة «ترفيه» .. مرة نكت .. مرة ألغاز .. حسب الطلبة ما تختار .

– عظيم جداً ! ودى كل أسبوع ولا كل أسبوعين ؟

– كل خمس حصص بنعمل امتحان .. إذا نتيجة الامتحان كويسة .. بتبقى الحصة السادسة ترفيه .. نكت يعنى .

– يعنى زىّ أنا ما قلت فى الأول .. مهمل المنهج والحصص مخليها نكت .

بثبات ردّ المدرس وهو يلملم أوراقه لأن جرس انتهاء الحصة كان قد دق :

– أنا عارف أنا باعمل إيه ومسئول عنه .

هتف الناظر بقسوة وهو يغادر الفصل ويغلق الباب :

– ابقى قول الكلام ده قدام مدير المنطقة التعليمية .

* * *

أكرب الناظرَ علِمُهُ أن عليه أن يكتب مذكرة بما وقع من المدرس ليرفعها لمدير المنطقة .. إن بضاعته فى الفصحى مزجاة وكل مرة كتب فيها مذكرة وعرضها على مدرس اللغة العربية الوحيد الذى يثق بأنه لن يفضح جهله فى المدرسة .. كان المدرس الثقة يُخرِجُ له من كل سطر مصيبة .

لكن هذا المدرس مات – إنى أتحدث هنا عن الأستاذ حسين ضيف اللّه جار النجار – رحمه اللّه .. الفاتحة على روحه ، أمّا باقى المدرِّسين فاستشارتهم فضيحة ألعن من جُرْسة نيكسون ، ثم إن هناك إشكالية بالغة الخطورة والتعقيد .. هل يكتب «متن » النكت فى المذكرة أم لا ؟.. هل يسقطها فتصبح المذكرة ناقصة غير « متقفِّلة » ولا قانونية .. أم يسردها ؟ فإن سردها فبأى لهجة ؟.. بالعامية التى قيلت بها فتصبح المذكرة سوقيَّة لا تصلح للعرض على السيد مدير المنطقة ، أم يفصِّحُها فيكون عرضة لجعل بعض الألفاظ ذات وقع وقور فيتهم بأنه يُحابيه .. أو أن يكون المقابل الفصيح لاذعًا أقذع من الأصل العامى فلا يسلم من الاتهام بالتحامل ؟.. إنها حقا محنة !

قرر الناظر أخيراً أن يكتب النكات كما ألقيت .. فهذا الحل أسلم .. أما عن الديباجة الفصيحة .. فقد استخرج الناظر مسوّدات المذكرات السابقة .. وجمّع الأخطاء القديمة التى كان يقع فيها دائمًا .. فملأت ثلاث ورقات فلوسكاب جعلها تحت بصره .. حتى لا يقع فيها مجدداً .. وبدأ يكتب المذكرة .. وأخذ يشطب ويراجع ويصحّح ويشكّ ثم يمزّق المذكرة ويبدأ من جديد .. ويدق جرس الحصة الأخيرة .. وهو بعد لم يكتب شيئًا .

بعد ثلاثة أيام كان قد رضى نوعًا ما عن الصيغة النهائية للمذكرة ، فكتبها السكرتير على ورق استنسل ووقّعت ووضعت فى ظرف أصفر حكومى أغلقه الناظر بريقه شخصيًا ليتأكد أن الساعى لن يفضه فى الطريق فيخبر الأستاذ أسامة بمحتواه .. لكن الأستاذ أسامة على كل حال كانت فى جيبه نسخة من المذكرة قبل أن ترسل إلى مدير المنطقة ، بل قبل أن يراها الناظر نفسه مطبوعة .. فالسكرتير الذى كتب المذكرة صوّرها للأستاذ أسامة لأنهم – لحسن الحظ – بلديّات .

إذا كان الساعى قد أوصل المذكرة فى آخر نهار يوم الأربعاء .. فإنها ستعرض فى بوستة الخميس على مدير المنطقة .. ولمّا كان يوما الجمعة والسبت إجازة .. فإن الأستاذ أسامة قدّر أن استدعاءه سيكون فى يوم الأحد على أقرب تقدير ، لكنه لدهشته فوجئ بأنه مطلوب للحضور فى صباح الخميس .. وعاجلاً .. وللأهمية القصوى .. ولكى تكون الدهشة مضاعفة .. فإن الناظر .. مطلوب معه أيضًا .

ماذا حدث ؟.. هل انقلبت الدنيا ؟.. إن مدير المنطقة ليس جنرالاً .. وليس أبداً من رجال الضبط والنظام .. بل هو بحبوح .. جدع .. ولا يهوى الأذيّة .. فماذا جرى ؟

كان الناظر أكثر خوفًا من المدرِّس .. فالمدرس وطن نفسه على المساءلة والمؤاخذة .. فحضَّر فى رأسه الدفاع .. أما الناظر فلماذا استدعاه مدير المنطقة ؟

* * *

سكرتيرة مدير المنطقة .. سمراء .. أنيقة .. وهى ثرثارة ونوعًا ما نمَّامة .. لكنها مضيافة واستقبالها حلو :

– أهلاً أهلاً يا حضرة الناظر .. أهلاً يا أستاذ أسامة .

الباشا المدير فى انتظاركم .

دخل الناظر وعليه بدلة سوداء من الصوف الإنجليزى المعتبر .. بدلة لا تشبه فى شىء تلك الكحلية البائسة الرخيصة المسوعة .. ومع ذلك فقد فشل صوف الحليفة الفخم فى منحه شيئًا من الثقة أو ثبات الأعصاب .

دخل الناظر وفى ظله المدرس .. وبعد فائق التحية والاحترام جلسا على فوتيلَيْن يزيِّقان لأن صمغ التعشيق ردىء جداً ... أعطى المدير

المذكرة للأستاذ أسامة وطلب إليه أن يقرأها بصوت مرتفع .. أى جهراً .. كما فى حصة المحفوظات .

فوجئ المدرس بأن بالمذكرة جميع النكات التى قيلت فى الحصة .. إنه على يقين من أن الناظر لم يسمع إلاّ الأخيرة .. إذن فى الفصل طابور خامس ، حدث نفسه : إنهم بلا شك أولئك الثلاثة الذين وقفوا دون أن أقول لهم « قيام » ... لئن نجّانى اللّه من هذه لأمسحنّ بهم بلاط الفصل .

قرأ المدرس النكتة الأولى فضحك مدير المنطقة من كل قلبه .. مع أنه قرأها طبعًا قبل أن يرسل فى طلب المدرس .. عدّ الناظر ضحك مدير المنطقة نذير سوء .. إذ ليس فى الضحكة مصانعة .

قُرئت النكتة الثانية .. كانت فى الحقيقة بين بين .. ضحك المدير ضحكة خفيفة .. فانخلع قلب الناظر .. إن المدير يستمع إلى النكت استماعًا حقيقيًا وينفعل ويتجاوب .. إذن هو غير معترض على المبدأ .. ولكن هل هذا معقول ؟! نعم إنه معقول .. بدليل أن السيد المدير أوقف المدرس عند منتصف النكتة قبل الأخيرة .. ليقول له :

– رائع يا أستاذ أسامة واللّه فكرة الترفيه عن الطلبة دى .. لكن كمِّل .

لم يدر أسامة إن كان عليه أن يفرح أم يقلق أم يكتفى بالدهشة من هذا المدير الذى يبدو أنه لا يمزح .. أكمل المدرس وبدأ فى النكتة

الأخيرة التى قالها طارق .. نكتة الحفرة والمستشفى والإسعاف .. وهنا تغيّر وجه مدير المنطقة .. وكأنّه لم يقرأها قبلاً .. اتّسعت أحداقه وصرّت أسنانه حتى كاد المدرس يوقف القراءة .. والناظر جالس يراقب دون أن يفهم شيئًا .

وصل المدرس فى النكتة الأخيرة إلى قول رئيس مجلس المدينة «وليه نبنى مستشفى ونكلف نفسنا (*) احنا نردم الحفرة دى ونحفر حفرة تانية جنب المستشفى» .

ورغم رهبة الموقف فإن المدرس ضحك حين قالها .. ضحك حتى وهو ينظر إلى وجه السيد مدير المنطقة.. لكن هذا لم يضحك .. ولم يغير تقطيبته .. بل تساءل محنقًا :

– تقدر تقوللى يا أستاذ إيه النكتة فى كده ؟

– أفندم !

– إيه النكتة فى نقل الحفرة ؟ تصرف السيد رئيس مجلس المدينة مش عاجب سيادتك فى إيه ؟

(*) عبارة « ونكلف نفسنا » لم يقلها طارق حين ألقى النكتة .. لكن الناظر أضافها حين نقح المذكرة للمرة الرابعة بعد أن كان قد شطبها ، فقد كان فى الحقيقة غير متأكد مما إذا كان طارق قالها أم لا لكن رأيه استقر على أن الزيادة خير من النقصان .

أراد المدرس أن يقول إن التلميذ هو من قال النكتة لا هو .. لكنه من ناحية رأى أن هذا سيكون منه جبنًا ونذالة وربما أهين طارق من جريرة فكرته .. ومن ناحية أخرى فإنه كان يريد أن يفهم لماذا وقف المدير عند تفاصيل هذه النكتة بالذات .. فهى قبل كل شىء نكتة .

كان المدرس يريد فقط أن يفهم موقف المدير .. لذا سأل :

– أنا مش فاهم إيه اللى مزعل حضرتك .. ما دمت سيادتك موافق من حيث المبدأ على فكرة الترويح عن الطلبة ، وتخفيف رتابة المناهج .. تبقى فين المشكلة ؟

فى ثورة حقيقية صاح المدير :

– المشكلة يا أستاذ يا محترم إن ده فيه تطاول على أصحاب المراكز المحترمة فى البلد .. وتعريض بى أنا شخصياً .. انت ما تعرفش إن السيد رئيس مجلس المدينة يبقى أخو المدام ؟!

امتقع وجه المدرس .. وفتح الناظر فمه بزاوية ٨٠ درجة ، وتكهرب الجوّ .

أراد المدرس أن يلطّف الموقف .. فقال مهدئًا :

– بس يا فندم .. دى نكتة .. افتراض عام .. خيال شعبى يعنى !

بنفس الثورة صرخ المدير متسائلاً :

– أنا عاوز أعرف .. إيه النكتة في كده ؟ كنت عاوز يعني يسمع كلام المغفّلين ويحط عربية إسعاف جنب الحفرة ؟ كنت عاوز الناس تاكل وشه ؟

استفهم المدرس مرتاعًا :

– لا مؤاخذة !.. حضرتك تقصد إيه ؟ هو نسيب سعادتك .. قصدى .. السيد رئيس مجلس المدينة عمل كده فعلاً ؟

بفروغ صبر أجاب مدير المنطقة :

– يعني يسيب الناس تقع كل يوم وتتصاب من غير ما تلاقى علاج قريّب ؟ أما أمرك غريب !

رغم الذهول غير العادى الذى حطّ على رأس المدرس إلاّ أنه لما راعه غباء رئيس مجلس المدينة الذى أضحكت تصرفاته حتى الأطفال .. فإنه قدّر أن السيد مدير المنطقة لا بد غبى مثله .. وإلاّ ما صاهره .. بل ودافع عن أفكاره .. لذا فإنه تجرأ وتساءل ليُحرج المدير ويكشف سوء تقديره وقلة درايته هو وصهره :

– لكن حضرتك يعني – أنا باسأل بس – إذا كانت الحفرة ممكن تتردم .. وتِتْحِفِر فى مكان تانى .. فإيه لزومها أصلاً ؟..

قهقه المدير حتى استلقى .. وشرق وشرب من زجاجة المياه المعدنية الموجودة على مكتبه دون أن يصبّ منها فى الكأس الموضوعة إلى جوارها .. شرب وهو يهتز لا يزال حتى بلّل الكرافات والقميص .. ثم وجه كلامه إلى الناظر وهو يمسح الماء عن ملابسه وينثره على المكتب :

- شوف يا حضرة الناظر المدرس الجاهل بتاعك ! قال إيه لزوم الحفرة ! قوللى يا أستاذ .. اسمك إيه ؟

- أسامة يا فندم .

- قوللي يا أستاذ أسامة .. فى أى شارع فى البلد عندنا ما فيهوش حفرة ؟

سكت المدرس ولم يرد .. فكر وحاول فعلاً أن يجد شارعًا ليست فيه حفرة .. لكنه لاحظ حقًا أنه لم ير مثل هذا الشارع .

بلهجة فيها شىء كثير من الاستهزاء صاح المدير :

- ما تردّ يا أستاذ ! عمرك شفت شارع كده ؟

لكن المدرس لم يرد .

واصل المدير بلهجة فيها بدلاً من الاستهزاء .. الاستفزاز والتحدى والمراهنة :

- بشرفى لو قلت اسم شارع دلوقتى ما فيهوش حفرة .. أقرر لك علاوة ، وأنقلك مدرسة جنب بيتكم !

أجهد المدرس ذهنه فعلاً .. إنها علاوة .. والمدير لا يمزح .. وإذا كان الموقف كله فى منتهى الغرابة .. والناظر جالس كالكرسى لا يفهم شيئًا مما يدور .. إلاّ أن المدرس اندمج فى الموقف وبدأ يستعرض فى ذهنه خريطة المدينة ويستخرج من ذاكرته تفاصيل شوارعها ، وفجأة أشرق وجهه .. وبفرحة حقيقيّة صرخ :

– افتكرت ! شارع الجمهورية ما فيهوش ولا حفرة !

انفلت عيار المدير وضحك أكثر من السابق لكنه لم يشرق هذه المرة بل غالب ضحكهُ وقال منتصرًا :

– ده الشارع ده بالذات فيه حفرتين .. واحدة عند التأمين الصحى والتانية عند محل العصير ...

لم يتذكر أسامة إلاّ واحدة .. لكن هذه الواحدة كانت كفيلة بجعله يخسر الرهان ؛ لذا فإنه ابتأس .. واستعد للإهانة .. لكن المدير قال بطيبة :

– ما تتعبش نفسك يا ابنى .. مفيش شارع كده .. الحفر دى معناها إن الناس شغالة .. تليفونات .. كهربا .. صرف صحى .. معناها إن الفلوس رايحة لمكانها .

لم ييأس المدرس .. بل عاد إلى أصل النكتة بتسلّل وحذر وقال بصوت خفيض :

– أنا قصدى بس سعادتك .. إنه إذا كان الحفْر ضرورى فى الشارع ده .. يبقى ازاى يتنقل شارع تانى ؟

عادت العصبية إلى المدير .. وشرب الماء هذه المرة من الكأس .. وبدأ يُفهِم المدرس العنيد ذا الرأس المسطّحة هذا أنه بكل بساطة حمار .. قال وهو يُجْهِزُ عليه بالمنطق البسيط والسلطة الرئاسية والصوت العالي :

– حضرتك مدرس إيه ؟

– مواد اجتماعية .

– تفهم فى الكهربا ؟

– لا .

– فى التليفونات ؟

– لا .

– فى رصف الطرق ؟

– لا .

– فى البنية التحتية ؟

– لا .

– مدرس الرياضيات زميلك لو عدّل عليك فى شرح خريطة أفريقيا ها تقول له إيه ؟

– ها قول له ما لوش دعوة حضرتك .

– يبقى انت برضه ملكش دعوة حضرتك بالحفر .. وما تقولش نكت ولا تسمح إنه يتقال فى فصلك نكت إلاّ لمّا تتأكد إنها ما حصلتش .. ولاّ أحسن .. ما تقولش نكت أصلاً .. المرة دى إنذار شفوى بس ... بعد كده أنت عارف .

وانت يا حضرة الناظر .. إنذار لك برضه .

هتف الناظر كالمجنون :

– وأنا ذنبى إيه يا سيادة المدير ؟!

– التراخِى فى الإبلاغ يا حضرة .. المنطقة لازم تحاط علمًا بكل المخالفات فوراً .. خصوصاً المسائل المهمّة اللى من النوع ده !

* * *

زوجـة المناضل شـين

اتفقت كلمة نسوان الشارع على زيارة أم أشرف ... لقد أكل الكُلُور يدها هذه المسكينة ... هذه هى الأصول ... ثم إن أم أشرف صاحبة واجب .. لا تفوّت زفافًا ولا طهوراً ولا حنّة ولا مأتمًا إلاّ كانت ممّن يأتون فى الأوّل ...

أم أشرف سيّدة شهمة فعلاً ... وفوق ذلك هى جميلة ... من ذلك الجمال الذى تجده فى لوحات جيرار وماتيس ... ترهلات واسترخاء وغباء ورحرحة ، كأنه لا شىء يشغل المرأة إلا الاضطجاع على الشيزلونج ... والسرحان فى لا شىء ... هكذا كانت أم أشرف لكن مع بضعة اختلافات هنا وهناك ؛ فهى أولاً نشيطة لا تعوّق حركتها الشحوم .. ، ثم إن بيتها ليس فيه شيزلونج ، بل فقط كنبة إسلامبولى لا تصلح للاسترخاء مطلقًا ؛ فحشيتها القطنية بحاجة إلى إعادة تنجيد ولكن من أين يأتى أبو أشرف « زوجها الأستاذ مشهور المرشدى » بنفقات التنجيد وأمواله « كلها » مصروفة على عمله النقابى ، وأخيراً فإن أم أشرف لم يرسم أحد لها من قبل أية لوحة ، وليس فى قلبها ذرة عشم فى أن يقوم أحد بهذه المبادرة .

* * *

الأستاذ مشهور المرشدى هو ممثِّل شركته فى النقابة .. منذ سبوع ابنه البكرى أشرف وهو عضو فى النقابة ... ؛ لذا تراه إذا راج نشاط النقابة أو نجحت مطالبته فى مجلسها بشأن تأمين صحى أو معاش أو مصيف ، أو إذا ظهرت صورته بالألوان فى جريدة المحافظة فى صفحة أخبار النقابات ... رجع إلى البيت ، وباس أشرف وهو يقول فى سعادة طفولية : انت وش الخير ، أما إذا غطرش النقيب على مطالبه ، أو سخط عليه المدير فنقله من شئون العاملين إلى مراجعة الحسابات إيذاء وتنكيلاً ... أو إذا تجاهلته جريدة المحافظة فلم تُشِرْ حتى إلى اسمه ، فإنه يعود إلى بيته مزمجراً بأقبح السباب ، وإذا تقدم أشرف إليه ببراءة متصايحاً : بابا جه ... فإنه بالكاد يمنع نفسه من أن يا كله قلم ... محترم ... أو قلمين .

* * *

الأستاذ مشهور عمره الآن بين الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين ... وإذا كان فى الشركة كثير أسنُّ وأقدم إلاّ أن الأغلبية الكاسحة تصوت فى انتخابات النقابة المشهور ، فهو نشيط ، و «متحرِّك» ، ولا يهمه أحد ... ، إذا سألت زميله الذى يجاوره فى المكتب عنه فإنه يقول لك بنبرة محبّة ضاحكة : مشهور هذا حبيبى !.. واد ملعون !... يستعين على الرؤساء بالنفاق وعلى الشتاء بالكلاسين وعلى المعاشرة بالحشيش وعلينا بخفة الدم ... حتى رئيس القطاع الذى طاف بمشهور

كعب داير على الإدارات ليفقده « الأرضية الشعبية الثابتة » .. لو نبشت قلب هذا الرجل لوجدته يعزّه جداً ... أنا شخصياً أموت فيه ... فيه كاريزما كده يا أخي ... سبحان اللّه ..!

ثم إن مشهوراً رجل كريم .. إذا دخلت مكتبه .. لا بد أن يحلف بالطلاق أن تشرب عنده شاياً .. أو إذا كنت غريباً ، فربما كانت الضيافة ليمونادة سكر كتير فى كوب ياسين طويل تطفو على وجهه حبيبات الليمون وذرات من الشاى الذى اختلط – بالضرورة – بالسكّر الذى حلّى به الساعى الليمون ...

ولأن البوفيه – نتيجة لهذا الغباء الحاتمى – يطالب الأستاذ مشهور كل شهر بمبلغ جسيم يستحيل مراجعته فيه وإلاّ ضاعت شهرته كفيّيس إلى الأبد ... ، أقول لأن البوفيه يطالبه بكل هذه المبالغ فإن مرتبه يضيع نصفه فى تسديد هذا الحساب – وهذا الحساب هو الذى يقصده فى الحقيقة حين يتحدث عن مصروفات العمل النقابى – ، وهكذا نستطيع أن نفهم لماذا لا يستطيع الرجل أن يدفع للمنجد الذى تطالب به زوجته من أجل الكنبة الإسلامبولى ذات الصحارة الخرافية العمق .. والطافحة برائحة النفتالين الردىء الذى تدسه أم أشرف فى ثنايا الملابس الشتوية التى يبتلعها جوف الكنبة عند أول كل صيف ليعود فيلفظها عند فرار الخريف وقدوم المدارس والشتاء والانفلونزا ...

* * *

كانت الشركة قد قرّرت رفع رسوم الاشتراك فى صندوق دعم حالات الإصابة والعجز والوفاة ... وهذا معناه أن مرتب البعض سيقل عن الثلاثمائة جنيه ، وربما أقل من المائتين إذا كان ملتزمًا بسداد أقساط بوتاجاز أو ثلاجة أو صالون لجهاز ينته البكرية ... قرار كهذا معناه سخط عام ، وتحفُّزٌ من الإدارة تحسُّبًا لتجمعات من الموظفين والعمال ، قد تُجَنّ فتتظاهر أو تعتصم أو - لا قدر اللّه - تُضرِب ، وهذا معناه الويل والثبور ، والمباحث والمأمور ...

معنى هذا القرار أيضًا .. أن على الأستاذ مشهور أن يقوم بعمل ما ..

اجتمع الموظفون والعمال فى مكتب الأستاذ مشهور .. وسألوه : ما العمل ؟... كان فى مقدمتهم رجل ظريف .. لا يعرف فى حياته شيئًا إلاّ الضحك ودواعيه ... سيموت بأزمة فى القلب ... هذا أكيد ... هو من لقب مشهور بالمناضل شين .. وحين سأله هذا : لماذا المناضل شين ؟ قال الرجل : اسمك كله شين : مشهور المرشدى وابنك اسمه أشرف .. تبقى شين ولا لأ ؟...

هذه المرة جاء الرجل محرضًا لا مداعبًا .. قال :

- جاهز المرة دى يا سيادة المناضل ؟

قال مشهور متبالهًا :

- خير ! فى إيه ؟!

– هاتصهين ؟

– على إيه ؟

ثار الرجل :

– أنا قلت ..! .. الكرسى غيّرك ، ما عدتش حمل القولت العالى !

أوقف مشهور المزاح وقال متشامخًا :

– عيب عليك !... أنا أخاف ؟! – وقد كان مرعوبًا – من يوم الخميس هانعتصم طبعًا .

صرخ الرجل الظريف :

– ينصر دينك أيوه كده .. أنا قلت ..!

زغردت موظفة حامل فى الشهر الثامن ودعت له بطول العمر وستر العِرض .. وخرج الجميع أياديهم على قلوبهم ... لكن مبسوطين !

* * *

معنى قرار الاعتصام – الذى قرر مشهور أن يبدأ بعد أربعة أيام – أن يذهب الأستاذ مشهور إلى أمن الدولة ليخطر بالاعتصام ...

هذا التقليد غدًا متبعًا باضطراد بعد أن فُصِل النقابى السابق على الأستاذ مشهور من عمله حين لم يتّبعْه .. طبعًا لم يكتب فى قرار

الفصل أنه اعتصم قبل أن يخطر وإلاّ فما فائدة « الشئون القانونية » ؟...
إذن أصبح التنسيق المسبق بين النقابة والأمن روتينًا يقبله الجميع ..
لكن هذا القبول – بالضرورة – لم يأت هكذا فى يوم وليلة ... ؛ فمشهور
فى البداية – حين أخطر للمرة الأولى – جرى تصنيفه كعميل متواطئ
ليس أهلاً للثقة أو الاحترام .. حتى الرجل الظريف (مانح اللقب) قال :
هذا إخبار لا إخطار ... وفى اللغة : أخبر .. يخبر .. فهو إيه ؟.. مُخْبِرْ
طبعًا !... اخص ع الرّجالة !

كانت الدعاية مريرة والإرجاف مدويًّا .. حتى إن نجاح مشهور فى
انتخابات التجديد أمسى موضع شك كبير .. ، لكن تعسُّف المدير معه
– لمحض انتمائه النقابى – جعل الدعايات تتبخَّر ، وتكاثف المؤيدون
على الصندوق حتى الذين « لسَّنوا » على مشهور جاءوا وصوَّتوا
لصالحه نكاية فى المدير ... اكتسح مشهور ، ومن جهته كافأهم على
ثقتهم فاجتهد « وحسنت سيرته فى مباشرته وأعماله » ، ولم يلبث
الخلاف حول « مَرْجَلَة » مشهور أن تزحزح من بؤرة الاهتمام إلى
الهامش البعيد المهجور... وبات الاتهام بالعمالة أمرًا مستهجنًا لا يهمس
به إلاّ قلة من منافسيه فى الانتخابات ... وفى كل مرة يسقطون .. ؛ فهم
لا يقدّرون أن هذا الإخطار مغامرة كبيرة ؛ فهو يدخل إلى مكتب أمن
الدولة وهو لا يدرى إن كان سيخرج أم لا ... ، صحيح أن الإخطار
مؤشر على التعاون ، لكن الأمر يتوقف على « الظروف المحيطة » ...

وحيث إن خروج الرجل من « المكتب » بعد كل إخطار هو أمرٌ غير مضمون ... فإنه فى كل مرة يأخذ أهبته : يشترى سجائرهُ ، وتجهّز له زوجته « غياراته » وتبيضها له بالزهرة والكلور .. ، ويأخذ معه راديو .. وأربع بطاريات قلم ... لكن زوجته هذه المرة حين شرعت تجهّز «الغيارات» ؛ لأنها تعلم أن المخبرين يفتشون الهدوم « كلها » ، فهل تتركهم يتفحصون فانلات الأستاذ مشهور وقد أحالها طول العهد إلى أصفر ترابى « يِكْسِفْ » ؟! غير ممكن طبعًا ... لا بد من الزهرة والكلور للتبييض إذن ...

أقول لكنها هذه المرة لم تكن حذرة ، فحرق الكلور أصابعها وكاد يأتى على كفّيْها والساعدين ، لكن الستار موجود ... قدّر ولطف .

* * *

جاء النسوة إلى بيت الأستاذ مشهور للسؤال عن صحة أم أشرف، صباح حملت كيلو شيكولاتة چوفريت ، ورُقَيَّة : دستة عصير جوافة ملفوفة فى فرخ ورق كاروهات سينفع أشرف فى تجليد كشاكيله ... أما عفاف فإنها لم تحمل هدايا ... ؛ فأم أشرف لم تنقطها فى طهور ابنها – كانت ميزانية الأستاذ مشهور وقتها فى الحضيض – ، فيكفى إذن أن تسأل عنها عفاف وعلى أم أشرف أن تحمد ربّها ، وتبوس يدها على الوجهين أن زارتها عفاف زوجة مأمور الضرائب ، وشقيقة ضابط المرافق الذى « خدم » أبا أشرف ألف مرة من قبل ولاّ انتى ناسية ؟

ترك أشرف كتاب الدراسات « الاجتماعية » وقدم الشاى للستّات ، قدّمه لأن أمّه ليس فى وسعها أن تحمل الصينية قبل أن ترفع الشاش من على يدها ، قدّمه وهو فى قمة خجله لأن بيچامته جيبها مقطوع ، وعلى الركبة بقعة واضحة جداً كان سببها انزلاق بلحة أمهات من يده ، رغم إحكام قبضته عليها ؛ نصيب !

كان أكثر حديث الستات عن أن تبييض غيارات الأستاذ مشهور لم يكن ضرورياً ؛ فلقد خرج الرجل من المكتب سالمًا بعد أن أخطر ولم يبق هناك سوى ساعتين - ساعتان إلاّ ربع انتظار وربع ساعة للإخطار - المهم أنه خرج ، ومعه سجائره والراديو والملابس « كلها » والحمد للّه ..

كانت عفاف أكثر الحاضرات حديثًا .. وقد ضايق أم أشرف أنها ترغى هكذا وتأخذ الجلسة لحسابها وكأن البيت بيتها مع أنها جاءت « وايدها فاضية » ... أرادت أم أشرف أن تغيظها ، فشرعت - بدون مناسبة - تتحدث عن فساد ذمم مأمورى الضرائب وعن أن الرشاوى زادت ، والجرائد هذه الأيام .. تفضح .

لكن عفاف سليطة و « مستقوية » فلم تلجأ إلى التلميح مثلما فعلت مضيفتها ، بل عمدت إلى الإهانة الصريحة ... قالت كل شىء ... بيتكم قذر ... وكنبتكم الجلوس عليها يكسر الظهر .. وزوجك شحاذ .. والدليل

على ذلك أن غيـاراته لا تبدو جديدة إلاّ إذا نقعت فى الكلور .. وهذا الشاش الذى تربطينه يا أم أشرف - فى الحقيقة - عار وفضيحة ..

هذه الوقحة !.. هذه إهانة توجّه لأم أشرف فى بيتها والسكوت مستحيل .. قامت واستعدت لفاصل من الردح والشتائم ، وربّما شد الشعر والضرب .

لكن صوتًا - هو صوت البقال - صاح من أسفل بلكونة الأستاذ مشهور :

- يا أشرف .. أبوك يا ابنى خدوه من ع القهوة ... وبيقولكم ابعتوله « الحاجات » واوعوا تنسوا السجاير .. ثم قال محدثًا جاره الحلاق : مسكين الأستاذ مشهور ... النور قطع فى دورية الليل فى الشركة ... افتكروا حد من العمال عملها .. وإن أبو أشرف حرّضه .. راحوا كابْسين ..!

رفعت النسوان بالصوت .. كلُّهنّ ... حتى عفاف بكت بزعل حقيقى واحتضنت أم أشرف وطبطبت على ظهرها دون أن تشخشخ بغوايشها - كعادتها - وقالت من بين دموعها الصادقة :

- شدة وتزول يا أختى ... شدة وتزول يا حبيبتى ..

* * *

الحَمَّام الدَّاخلي

كان قرار ندب ماجد بك للعمل بمكتب مساعد الوزير هو القرار الأبعد في التصوُّر عن خيال أكثر الزملاء جنونًا ... ماجد بك نفسه لم يكن يحلم بهذا ..

أخيرًا سيستريح من أكوام القضايا والمتقاضين ووكلائهم والحُجَّاب والصولات والشهود ..

إنها واللّه نعمة .

لكن الذى جعل ماجد بك سعيدًا كطفل ... يكاد يرقص وحده فى الظلام ... ولا يقوى على قمع ابتسامته أو حتى جعل عينيه أقل بريقًا ... الذى جعله فى هذه النشوة الطافحة هو علمه بأن مكتبه الجديد به حمّام داخلى .. له وحده ... لا شريك له فيه ... إذا أراد أن يدخله .. فهو غير مضطر إلى مغادرة مكتبه ... إنها ليلة القدر ... ودعاء الوالدين .. وكل بركات الأولياء ونبوءات الأبراج ... لا بد أن كل هذ الخوارق قد أدت عملها فى لحظة واحدة .. فوقع الفرج .. وتم الندب وظفر ماجد بك بالحمّام ..

* * *

لم يكن ماجد بك من عبيد الأثرة والتفرُّد والنرجسيّة الحقيرة .. لم يكن هكذا أبداً .. ولم يكن هذا سبب فرحه الجنونى بانفراده بحمام خاص .. إن الرجل فى الحقيقة خجول .. نعم .. خجول جداً ... ثم هو انطوائى ... « مولع بالانجماع » على حد تعبير ابن حَجَر ، أى أنه يسعى إلى الإقلال من ملاقاة الناس ... لكن خذ بلك هو لا يكرههم ... مستحيل ... ليس فى الرجل شر ... لكنه فى الحقيقة لم يكن يحبهم ... ولماذا يحبهم ؟

إنه فى الحقيقة لا يأخذ عليهم إلاّ شيئًا واحداً ... خلة واحدة .. لو تركوها ... لقرّر على الفور فتح باب المفاوضات ... وربما – من يدرى – صادق زملاءه ، وأحب أصدقاءه ، وصافى أحبّاءه ... بل ولربما زار النوادى وحضر الأفراح و« المناسبات » .. من يدرى ؟..

إنه يكره فى الناس فضولهم ... فضولهم وتطفلهم وحشرهم أنوفهم فيما لا يعنيهم ... كلُّهم يريد أن يعرف سنّه ، ومكان بيته ، وقريته التى فيها أطيان جده ، .. وأين يركن سيارته ؟.. وهل اشتراها نقداً أم على أقساط ... وكم طفلاً لديه ... ولماذا تأخّر فى الإنجاب ؟... هل هو السبب أم تراها هى ... زوجته المحلاّوية ؟... نعم يا أخى .. هى .. صدقنى ... أختها فى الأربعين وبلا أطفال .. وهى بلا شك مثلها عاقر .. فلماذا إذن يحتملها ؟... ألا تعلم ؟ إن عمها صديق شخصى لمعالى الوزير و« يقولون » إنه سيندبه هذا العام لمكتب مساعد الوزير ...

كان ماجد بك مظلومًا حقًا ... ؛ فزوجته – الصعيدية – بلا أعمام ... ولا صلة لأى فرد فى أسرتها الأكاديمية الصرف بصاحب المعالى على الإطلاق ... ثم إن عدم الإنجاب هو أمر اتفق عليه الزوجان حتى تتفرغ هى لرسالة الماجستير التى أرهقتها وأرهقت المشرفين عليها فى قسم التَّعْدين ... لكنها لن تلقى سلاحها قبل أن تنال الدرجة ... وأخيراً فإن أختها التى فى الخمسين وليس الأربعين لديها ستة أطفال فى كل مراحل التعليم ونفقات معيشتهم أجبرت الأب على الغربة منذ ثلاثة أعوام فلا يراهم إلاّ فى أغسطس .. ألست معى إذن فى أن ماجد بك « محاطٌ به » وحياته مستهدفة أكثر من اللازم للاقتحام والتطفل والافتراء ؟.. أليس الرجل محقًّا فى حفر الخنادق .. وتعلية الأسوار ، وتكديس المتاريس ؟

فى الواقع .. هذا ليس إلاّ نصف الحقيقة ... ؛ فماجد بك .. مع كامل تقديرى لمعاناته ... مُشارك نوعًا ما فى خلق هذه « الحالة » .

الرجل كما أشرنا متزوج ... وهو فى اعتدال الشباب فى الثانية والثلاثين – وبالمناسبة تمنح النساء وسامته تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف – ، ثم إنه – اقتصادياً – معدودٌ من المياسير .. كما أن عقله متوازن ... ؛ بمعنى أنك لا يمكنك أن تضبطه فى موقف الخاضع لإغواء الغضب أو الطمع أو الغيرة ... لا .. بعيد هو عن كل هذا ... لكن يقينه بأن فى الناس فضول زائد نحو شخصه وحياته .. لا يلبث ينغِّص عليه أيامه ... فيخلق له أوهامًا تباشر عليه تأثيراً طاغيًا .. طبعًا ليس إلى

درجة الوسوسة والجزم بأن العالم كلَّهُ على قلب رجل واحد متربص مترصد يراقب ويسجل الحركات والسكنات ... ليس هذا حال الرجل إطلاقًا ... إنه طبيعي ... لكن أوهامه .. أحيانًا ... تشتط وتتجاوز وتغلو ... فيتألم الرجل .. لكنه لا يشكو ... بل يحرم نفسه من وجه من وجوه الحياة كان خليقًا بأن يسير فيه سيرًا طبيعيًا .. دون مكدرات ... لكن الناس تدخلوا بالمراقبة والهمس والتأويل ... فآثر الحرمان على المواجهة ... وعلى هذا النحو ألغيت من حياته بنود : النادي ، والمصيف، والجمعيات العمومية ، والإفطار الرمضاني الجماعي ، وعلاقات الزمالة والجيرة وكل هذه « الأوجاع » .

كان هذا العزل المتصل بركة على ماليَّة الأسرة ... فكل هذه « العلاقات » ليست بالمجّان ... بل هي حركة واتصال ... إرسال واستقبال ... تزاور وإهداء .. والرجل ليس بخيلاً .. فلو كان الحرمان من هذه الأمور سيكلفه أكثر .. ما تردد .. بل ولسخا بالمال مبتهجًا ... فالأمر كله – إذن – مرجعه إلى فكرته عن الناس .. فكرته التي خلقت عنده هذه الخيالات والظنون ... ونشّأت في نفسه إيثار العزلة والانجماع ...

* * *

لعلك يا أخي تتسأل : هل تركه الناس على حاله وأسلموه لحياته التي يريدها ؟

طبعاً لم يفعلوا ... لقد كانوا يسألون ويلحون ... لماذا لا نراك ؟... أليس لك أصدقاء ؟... هل تذهب إلى النادى ؟...

كان جوابه الوحيد جاهزاً ... ومدبجاً ... « بليغاً » وواثقاً بحيث ينطلق فى ذيل كل سؤال اقتحامى مما سبق ... ينطلق بحماس واقتناع رغم الهدوء والابتسامة العريضة .

كان يقول :

– أنا رجل أعمل فى القضايا ومصالح الناس .. فلو زادت «معارفى» .. واتسعت دائرة علاقاتى لكثر الطامعون .. هذا يأمل فى مجاملة ... وذاك يطمع فى محاباة ... وأنت يا سيدى (فهو مهذب جداً) تعلم أن هذا كله مرفوض عندى تماماً ...

فإذا كان السائل من أولئك اللزجين الذين لا يقدرون خصوصيّة الرجل .. انطلق فى صفاقة يحاصره .. وقال طامعاً فى إحراجه :

– لكنك تعتزل حتى الزملاء والموظفين الإداريين ... فهل يمكن أن يكون هؤلاء خصوماً عندك يوماً ما ؟

لا يخرج ماجد بك عن هدوئه ... بل ولا تفارقه ابتسامته ... وإن كان الضجر قد بدأ يغزوه ... فيرد وقد مقت هذا السائل تماماً :

– أليس لهؤلاء الزملاء أقارب وجيران و «معارف» يشكون الناس ويشكوهم الناس ؟ هل هم من الملائكة ؟

يتركه السائل اللزج .. لكن الضجر لا يتركه .. فيظل يلعن الفضول وأصحابه ... كان أضراب هذا الرجل فى نظره كالتراب الناعم قادر على التسلُّل حتى وإن غلَّقت الأبواب والنوافذ .. وأحيانًا كان يشبههم بالذباب كلما صرفته عاد إلى إزعاجك وتسميم هناءتك ، وأحيانًا أخرى كان يراهم كالأمراض ... وتحديداً كالانفلونزا .. لا تعرف بالضبط متى تصيبك ولا كيف لكنها تفسد أيامك وتجعل تنفُّسك يضيق وحرارتك ترتفع ... بل إن الانفلونزا نفسها لا تفعل ما يفعله هؤلاء السادة ... حتى قضاء الحاجة الذى يزاوله الحيوان بأريحية وهدوء وخصوصية .. دون تكدير .. جعلوه عنده طقسًا محفوفًا بالحذر والحرج والتخفِّى ... ما إن تضغطه الحاجة ... ويترك مكتبه ليجتاز الردهة الطويلة الموصلة إلى الحمَّام ... ويطرقع حذاؤه الإيطالى ذو الكعب الخشبى - دون عمد منه طبعًا - على رخام المر ، حتى تشرع حيوانات الفضول فى التيقُّظ والنشاط ومتابعة حركته ذهابًا وإيابًا .. كمفتشى النقل والمواصلات ... : ها قد خرج من مكتبه ... وها هو ذا حذاؤه يطرق الأرضية كالقادوم ... إنه يسرع اليوم ... إنه لا بد منضغط جداً .. انظر كيف يفتح الباب المصلح بقوة وسرعة واندفاع ! ألم أقل لكم إنه مستعجل ؟.. ثم ها هو يعود بطيئًا يمشى الهوينى فلا تشكو منه الأرض ..

هذا كله وأكثر .. يؤكد عقل ماجد أنه يدور فى حلوق الموظفين خلف جدران المكاتب حين يغدو إلى الحمَّام أو يعود ... لقد أبغضهم وضاق بهم ، .. وضاق بالحمَّام والممر والرخام ونعل الحذاء ... فصار

لا يفطر حتى لا يضطر إلى زيارة بيت الراحة ... ورمى حذاءه واشترى آخر بنعل من المطاط كذلك الذى يلبسه اللصوص ... وحرَّم على نفسه اللبن والملوخية وكل الملينات ، واحتفظ فى درج مكتبه بكل مقبضات الأمعاء .. من الأعشاب والأدوية ، إذ ليس فى مقدوره أن يصمد لهجوم ظنونه إذا ما كثرت زياراته للحمَّام .. ، ظنونه التى ستقسم له أن الذباب قد انتشى وأخذ يطن بصوته القبيح :

– ماجد بك عنده إسهال ! ، ماجد بك عنده إسهال ! ... كلاب ! .. ما لهم وحركة أمعائه ؟

بوسعك الآن أن تتصور مبلغ السرور الذى اجتاحه حين جاءه نبأ انتدابه إلى المنصب الجديد ذى المكتب الجديد ذى الحمَّام الداخلى الذى سيطرد من حياته الممر الرخامى ، والحذاء المطاطى ، والأدوية المقبضة ... سيكون سيد حياته ... وحاكم عالمه .. وسلطان مملكته ... بلا ذباب .. ولا انفلونزا .. ولا تراب ناعم .

* * *

كان من دواعى ندبه للعمل بمكتب مساعد الوزير حرصُه على المواعيد ... فهو أول الحاضرين وآخر المغادرين ... طبعًا هو كان يفعل هذا حتى لا يرى أحداً ولا يراه أحد فى الدخول والخروج ... لكن التقارير السرية نوَّهت إلى هذه العادة ... فأزاحوا خلفه الذى كان لا يأتى قبل

الضحى ... وجاءوا بماجد بك ... تنفيذاً لسياسة « الفعل ورد الفعل » التى تطبقها الوزارة ... أو – كما يسميها البعض – سياسة إطفاء الحرائق ...

كان تبكيرُه فى الحضور فى اليوم الأول .. بنظر الحراس غريبًا فقد جاء قبل الجميع ... حتى السعاة وعمال النظافة جاءوا بعده ... لقد انطلق إلى مكتبه بعد أن وجد لسيارته – بسهولة – مكانًا فى مرآب الوزارة ... فلم يكن أحد على أى حال حضر قبله ... وصل إلى مكتبه فى الطابق التاسع ... ثم أدار مقبض الباب ... ودخل فاحصًا متأملاً ... مستكشفًا وسعيداً .

لم يكد يصدق عينيه حين وجد أن للحمام الداخلى مزلاجًا من الداخل ... ولباب المكتب مزلاجًا كذلك ! هذا عظيم ... إن الغرفة مهيأة على النحو الذى يأمله ... إنها مفصلة على مقاسه ... هنا يستطيع أن يبقى دون إزعاج ... لن يفرض أحد نفسه عليه ..

غرفة المكتب من الاتساع وقلة الأثاث بحيث يستطيع سماع رجع صوته إن هو تكلَّم ... تفقَّد الحمَّام بمرآته وحوضه وحوائطه ... والغرفة بسجادها ومكتبتها والمكتب والمقاعد ... هنا سيخلو بنفسه .. وينعم بدنياه ... حتى لو راكموا أمامه الملفات .. فسينجزها ولن يشكو .. وهل يشكو من يسكن إلى نفسه ؟

إن بوسع المرء هنا أن يغلّق الأبواب ويكمن ويختبئ ... بوسعه أن يختفي ... « أن يصير غير مرئي » .. وهنا أخذ يشتطُّ وهمهُ .. ويغلو خياله ... وكالممسوس أخذ يجرب أكثر مواضع الغرفة صلاحية للاختباء ... بحيث يغدو لا يرى ... جرّب الأركان الأربعة ... وداخل المكتبة ... وأسفل المكتب ... وفي الحمّام .. وأخيراً ... جاءته الفكرة ..

الفكرة التي كانت خليقة – إن هو لم ينفذها – أن تعد محض هذيان ... يستحيل إلى بخار يتلاشى ويتبدد فلا يعود يذكرها ... وإن ذكرها ضحك .. واتهم نفسه بالجنون ...

لكنه نفذها ...

كانت الفكرة أن يلف نفسه بالسجادة ويدحرج جسده الملفوف فيها .. حتى يصير أسفل المكتب ... هكذا سيصبح مخبأً تماماً كدودة في شرنقة .. فقط ليجرب متعة هذا الشعور ... الشعور الحقيقي بالاختفاء الكامل ..

أغلق الباب بالمفتاح ثلاث دورات .. ثم المزلاج .. ثم خلع الجاكتة .. والحذاء .. ووضعهم في الحمام ... ثم ثنى البنطلون ثنيتين .. وحشر الكرافات بين عروتي القميص حتى مسّ طرفها ثديه الأيسر فدغدغه .. إذ لم يكن من عادته أن يلبس في الصيف أسفل القمصان أية فانلات ..

أزاح من على السجادة المنضدة الرخامية المستطيلة .. ولما كانت هذه ثقيلة فإنه بدلاً من أن ينوء بحملها .. فقد جرها ... لكن ببطء حتى لا يحدث صوتًا ... لقد كان حَذِرًا كمن يسرق بنكًا ..

زحزح جميع المقاعد التى تحتل أقدامها مواطئ عدة فى أطراف السجادة .. تاركة آثارًا لمواضع ارتكازها ... ونقل منفضة السجادة المعدنية الأسطوانية الطويلة ... طهّر السجادة من هذا كله ... ثم أخذ يتأملها .. وقد بدت عليه الحيرة ..

كان الخيار صعبًا ...

إن هو نام طوليًا غطت السجادة جسده كلّه لكنها لن تكفى إلاّ لطيتين اثنتين وهذا من شأنه أن يجعلها غير محكمة ، فتتعرض – من ثم – لخطر الانفراج فيخسر كل شيء ، أمّا إن نام عرضيًا ... فستشمل السجادة جسده لأربع طيات كاملة .. فتكون موثقة لا خلخلة فيها ... لكن رأسه قد يبرز .. أو تظهر أقدامه من أسفل – فهو طويل – أليس فى هذه الدنيا سعادة كاملة يا ربى ؟!

كان الرجل عاقلاً وموضوعيًا ... فقرّر أن ينام عرضيًا .. هكذا يكون اللف متينًا ... فيسلم من مخاطر ارتخاء السجادة وانفراجها ... أما مسألة انكشاف رأسه أو قدميه ... فهذا أمر هيِّن الخطر ... ونصف العمى ولا العمى كله ... وما لا يدرك كله لا يترك كله ... ثم إن من الحكمة اختيار أخف الضررين ... وأخيرًا فإنه إن خفض رأسه

فانكمشت رقبته ، وضم ساقيه وثنى ركبتيه قليلاً .. فلن يظهر منه شيء .. ولن يكون هناك ضرر مطلقًا .. هذا هو الكلام !

.. استلقى كالأموات ... وأخذ شهيقًا طويلاً حتى تَنْشفِطَ بطنه ليدّخر مكانًا يسمح بأن تكون لفات السجادة أوثق ... ثم التقط طرفها بأصابعه وأخذ يلف نفسه حتى استكمل دورات أربع ... تمامًا كما قدّر ... ثم شرع يدحرج نفسه حتى صار أسفل المكتب ... كل هذا وجسده منكمش مضغوط وتنفُّسه متسارع وعرقه آخذ في التصبب ... أكمل الزحف حتى استقر في موضع قدر ألاّ أحد يمكن أن يبصره منه ...

انتظر هبوط السكينة والسعادة ومتعة التوحّد الفريد ... لكن شيئًا من هذا لم يأت ... بل أتاه طلوع الروح وحشرجة الأموات ؛ فقد بدأ يضيق بالهواء المكتوم الذى حصر نفسه فيه ... إنه يكاد يختنق .. ورئتاه موشكتان على الانفجار .. وضلوعه تئن ... يا لها من فرحة لم تتم ... إن عليه الآن أن يسرع بالزحف والخروج من أسفل المكتب .. ثم ينزع عنه هذا الكفن وإلاّ توقف تنفُّسه وغرق فى عرقه ...

بدأ يدحرج نفسه .. لكنه شعر بحاجز يصدّه ... إنها سيقان المكتب .. لقد حوصر .. كيف انحشر هكذا بينها ؟... إنها مصيبة !.. أخذ يميل وينحنى ويتقلب على الجنبين كالمطعون حتى تخف قبضة السجادة على جسده ... فيرتاح تنفسه .. لكنه عبثًا كان يحاول ... لقد كانت مُحكمة اللف ... وقد أنهكته محاولات التملص ... فجحظت عيناه وقلبه يعلو ويهبط كقلب فأر مذعور ... أما ملابسه فقد بللها العرق تمامًا والتصقت بجسده لتزيد عناءه ...

كان الخيار أمامه هذه المرة مصيرياً ...

مع ذلك فقد كان عليه أن يراجع كل حساباته فى هذه الثوانى المعدودة .. وأن يوازن بين الأرباح والخسائر ... وأن يتخذ القرار ... لكن الحياة لا تتيح لنا الظروف المثالية لعقد هذه الموازنات ...

كان عليه أن يستغيث فيفقد عالمه .. أو يحافظ على صمته فيخسر حياته ..

صرخ بكل ما بقى لديه من طاقة :

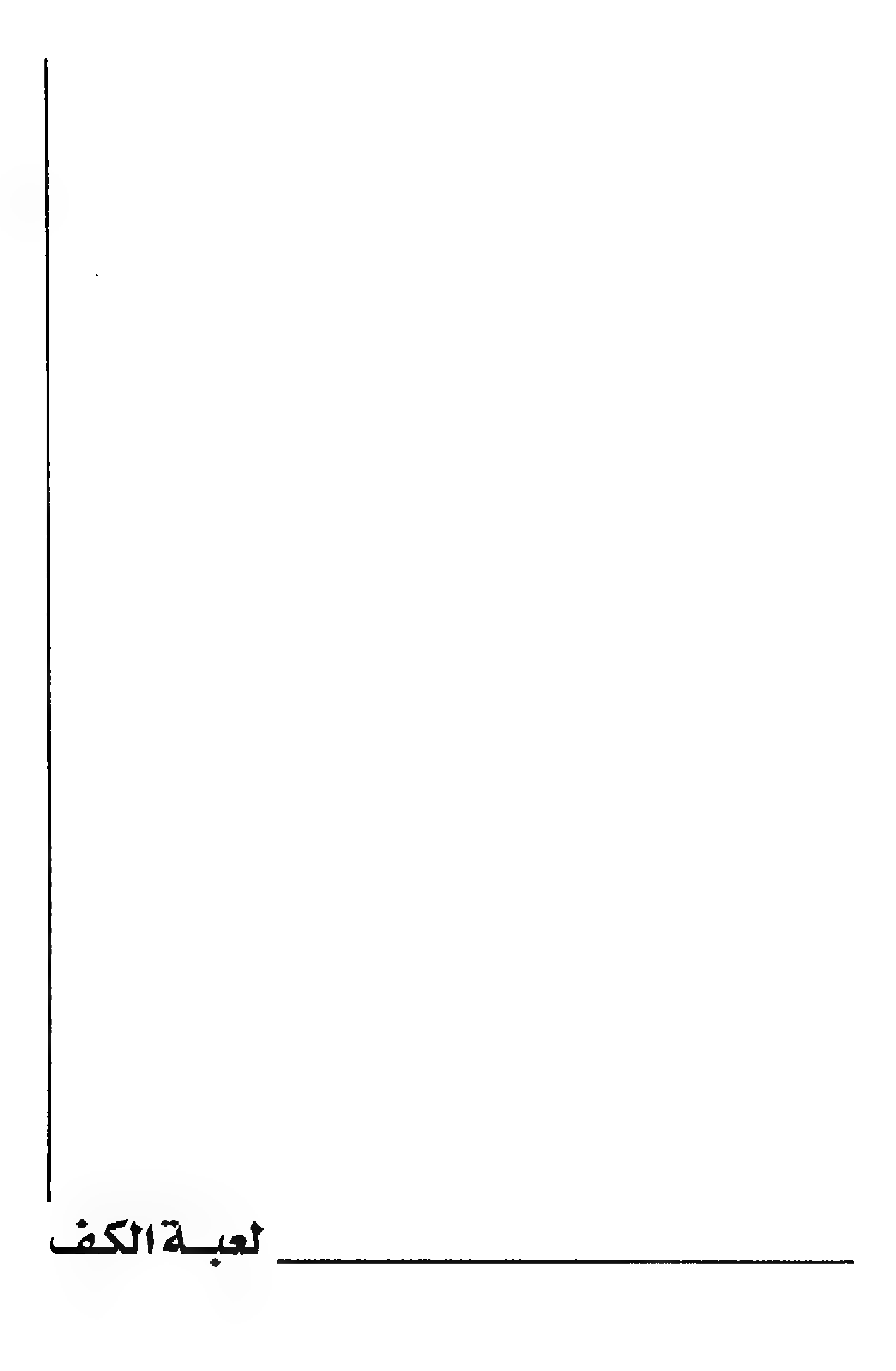
- الحقونى !

* * *

استقال ماجد بك طبعاً ... وفتح مكتباً للاستشارات القانونية ... فقط استشارات قانونية .. أى أنه لن يترافع أمام المحاكم ولن يحضر الجلسات .. ومع ذلك فلم يعدم رجالاً لزجين .. صفيقى الوجوه .. يسألون ببلادة ثقيلة .. تماماً كبلادة الذباب :

- لماذا لا تترافع ؟ هل تكره المحاكم ؟.. ولكنك رجل قانون ... المحاكم عندك كالمستشفى للدكتور .. ألك هناك خصومات مع الزملاء المحامين ؟ أم أن معارفك السابقين فى عملك القديم لا يرضيك الحضور أمامهم ؟... بالمناسبة ... لماذا استقلت ؟

* * *



صاح قاعود :

- لا أنزل ولا أتنازل إلاّ بالديك الرومى ... ثم قذف بكل ما تملّكته قبضته من حصى وتراب فى وجوه عيال الفريق المنافس .. الذين آلمهم الحصى جداً ، لكن أحداً منهم لم يجرؤ على إبداء ألمه ؛ فالتوجع لا يقارفه إلاّ المخنثون .. هكذا القواعد في بلد قاعود ...

قاعود هو الاسم الشعبى « الدلع » لمحمود ... فكل محمود قاعود وكل عبد الرحمن عوف .. فالدلع عند الفلاحين موجود ، والألقاب ما أكثرها ... لكن بعضها بغيض مستقبح لا يطلق إلاّ للتحقير ... وبعضها ظريف لا يُحفِظُ أحداً ، ولا ينكره أحد ... ، لكن السن إذا تقدمت فلا يليق أن تناديه باسم الدلع منفرداً إلاّ إن كنت من المقربين ... وقد كان الجميع مقربين من قاعود .

* * *

« الديك الرومى » لعبة بلدى خشنة ... إذا خرجت منها دون إصابات فأنت بطل ... فيها نطٌّ من على المصاطب وقذف بالحصى فى العيون ببراءة وغباء ... اللاعبون حفاة دون أن يكون الحفاء شرطاً فيها ... بل لأن الأهل لا طاقة لهم بشراء نعال ... والجلاليب على اللحم

رغم أن الخريف أقبل ولسعات البرد تناوش صدور الصبية المتأهبين بحماس ونشوة لتلقي حفنة الزلط والتراب في وجوههم ... حفنة مرعبة يقذفها صبي حليقةٌ رأسه إلاّ من غرة « قطيّة » تهتز مع اهتزازه وهو يصيح بلهجة خطابية رنانة وكأنه يعلن احتلال موسكو :

- لا أنزل ولا أتنازل إلاّ بالديك الرومي .

لا أذكر الآن تفاصيل هذه اللعبة السادية الحافلة بمخاطر إصابة الجمجمة أو تقذّي العين بتراب هو بالتأكيد غير نظيف ... لكنّني أذكر جيداً أن الجرحى فيها كل ليلة كثرة ، وأنها رغم ذلك ... أو ربما بسبب ذلك الأشوق والآثر عند الصبية ... ، فما إن ينفض مجلس العشاء الذي هو دائمًا - ولا أقول غالبًا - من باذنجان وفلفل مقليّيْن ، وجبن قديم ، وبتّاو مبلول ... البتاو من قمحنا ... والباذنجان من غيطنا ... والجبن من لبن جاموستنا السمراء الحلوة التي لا تنطح إلاّ الغرباء .. ، ما إن ينفض هذا المجلس .. حتى تستدعيهم « الديك الرومي » لتجبرهم على التجمع والتشكّل فرقًا للعبها عند « الحنفيّة » و « ال » التعريف المضافة إلى حنفية تعني أنها كانت الوحيدة في البلد ... أذكر جيداً ذلك الزمان الذي كانت فيه كل مياه البيوت - خلا بضعة منها - مصدرها هذه «الحنفية» ... تحملها النسوة منها إلى البيوت على نوبتين أو ثلاث حسب حجم الزير في البيت أو عدد المعجبين في الطريق ... تصوّر أن تتحمل حنفية واحدة كل هذه المسئولية !

* * *

كان قاعود بطل كل الألعاب فى البلد .. وفارسها الأول ... قلبه ميت فعلاً ... لا يرهب الزلط ... ولا يخشى الارتفاعات .

كان طفلاً عفريتًا ... شهمًا ... سخيًا .. وخفيف الدم ... صحيح أنه حين دخل حرم المراهقة صارت نكته أقلّ إضحاكًا ، كما أنه لم يعد متواضعًا كما كان فى أيام لعب الديك الرومى والوزر والولد ، لكنه فى المقابل أمسى دنجوانًا شغف مراهقات البلد حبًا ، وهذا جعله - بطبيعة الحال - موضوع حديث العيال من جديد ... صار لا يمشى حافيًا ... بل إنه يكوى الجلابية بالمقلوب ليكون سِنّ كم الجلابية مقعْرًا كورقة شجر الفيكس الذى زرعه مجلس القرية عوضًا عن الكزورين والسّنط والخروع .

أصبح قاعود يكتب رسائل « حب » ويسلمها للفتيات خلسة عند الحنفية وهو يساعدهن على رفع الحلل ... لكنه لم يعد يشارك فى ألعاب المصاطب والحصى والجرى والتخريب .. لم تعد لعضلاته بروز كما كانت أيام طلوعه النخل وصيده أعشاش النحل ليأكل عسلها دون أن تجرؤ نحلة على لسعه ... فعلاً لم يعد قاعود رشيقًا ... لكن العيال ظلّوا على حبهم له ... بل إنهم يترحمون على أيامه منذ ظهر على مسرح ألعابهم كمال أبو سالم (أى كمال بن سالم فقواعد الكُنى عندنا مقلوبة) .

كمال أبو سالم .. من سن قاعود ... سنة أكثر أو سنة أقل ... لا أذكر الآن تحديدًا ... عمومًا هذه المسألة - أعنى مسألة السن -

لا تراعى بدقة فى البلد ... بل تؤخذ بالبركة ويشهادات النسوة وكأن شهادات الميلاد طلاسم غامضة لا تفهم ، المهم أن الفارق العمرى بينهما ليس جسيماً .. لكن كمالاً كان على غير ما يحب العيال على طول الخط .

قاعود دمه خفيف .. أما كمال فإنه سمج ... قاعود يضرب ولا يجرح .. أما كمال فجزّار ... فتوةٌ هو وبلطجى أيضًا .. طويل عريض ... كفه شبران ... كنّاه العيال « أبا كف » .

مزحته الثقيلة الأساسية أن يدعوك لأن تضع كفك فى كفه .. ثم يضغط « يقرص » حتى تقرقع عظام كفك ... وتنفر عروق ساعدك ويحمر وجهك وتصرخ كالنسوان ... ولحظتئذ .. يتركك أبو كف بعد أن يضحك العيال منك .. بعضهم عن إعجاب أبله ، وأكثرهم تملُّقًا .

صار أبو كف سيّد ألعاب الحنفية ... لا أحد يجرؤ على معارضته فى التقسيمة قبل بدء اللعب .. هو يختار من معه ومن ضده ... عنصريٌّ هو ... ينتقى العيال العَفِيَّة ... ليكونوا فى فريقه ... أما الفريق الآخر فقطيع حفاة ... جلابيبهم مبقعة مرقعة .. وليس تحتها ملابس داخلية .. من يزوم منهم احتجاجاً على تشكيل الفريق يطرد فوراً ... وإذا هو حرن وأصر على اللعب ولم يقبل قرار الطرد .. كان عليه أن يضع كفه فى يد أبى كف ... ليرى العيال جميعًا إن كان المحتجّ رجلاً لا يعيّط .. أم أنه سينوح إذا (قَرَصَ) أبو كف .

لا أدرى كيف قبل العيال هذا الوضع ... إنهم كالمعيز يلعبون ضد أبى كف .. كل يوم ... هو الذى يختارهم .. ويلاعبهم .. ثم يغلبهم ... وهم من بعد غلبهم يتهامسون :

– لو كان قاعود هنا !... لو سألناه !

كان قاعود قد أفاد جداً من صعلكة المراهقين ... علم كيف يراوغ ويختبئ ويصانع .. عرف كيف يتمايل ويتعاجب .. حفظ شعراً وتعلم النصب وصار شيطانًا حقًا .. هو الآن فى عامه الرابع عشر ... كبر هو ولم يكبروا مع أن الزمان يمر على الجميع ... نضج هو وظلوا هم يلعبون الديك الرومى والوزر والولد ، بل إن بعضهم لا يزال يغنى « حد يرى بديرى » ويلعب عسكر وحرامية .

لأنهم لم يكبروا فإنهم أصبحوا يرون قاعود كبيراً وفاهمًا وأنه قادر لا ريب على مواجهة لعبة الكف .. إنه بالتأكيد لن يصرخ ولن يحمر وجهه ... ! إنه ليس « مَرَة » .

قال قاعود : حاضر ! .. هلّلوا وسألوا : متى ؟ .. قال : قولوا انتوا ! ... قالوا : الليلة ؟ الليلة عند الحنفية ؟ ... عند الحنفية !

* * *

بقبق الفلفل فى زيت التموين ثم صُفِّىَ جيداً – لتوفير الزيت لا لتحسين الطعم – ثم وضعت مكانه شرائح سميكة من الباذنجان

الرومى ألقيت بعجلة فطقطقت الطاسة تطش وتقذف حمم الزيت المغلى بسرعة وحماقة وجنون .. لكن بشرة الأمهات اعتادت هذا .. بحيث لم تعد سخونة الزيت تعنى شيئًا مخيفًا ... بلَّت البنت الكبرى البتَّاو ... وغاص ساعدها فى ماجور الجبن حتى ابتل مرفقها لتستخرج قطعتى جبن قديم مخططتين بخطوط طولية حفرتها فيها الشندة [١] الديس المعلقة فى أودة الشريعة [٢] ، تجمعت الأسرة حول الطبليّة تأكل وتشاهد «المسلسل» أكلوا من كل صنف إلاّ البنت الكبرى فإنها لم تقرب الجبن ... وكيف تأكله وقد كوى ماؤه المالح ذراعها الذى غسلَتْه ألف مرة ولا تزال الحكّة تنهشه ... أكلوا بينما الشاى يغلى فى براد صاج أزرق غطَّاه الهباب ، على بوتاجاز مسطح وارد ليبيا ... والشاى هنا للكبار فقط ، أما العيال .. فويل لهم إن جرؤ أحدهم على طلب كباية واحدة .. إنها وقاحة .. غداً يشرب الجوزة والسجائر ! – لا يعلم الآباء أنهم يفعلون هذا الآن فعلاً – لم يشغل الحرمان من الشاى اليوم بالهم فهم

---

(١) الشَّنْدَة : بساط من الغاب (الديس) يشبه الحصيرة يستعمل كمصفاة لتصفية الجبن من مائه .. مما يترك فى الجبن خطوطًا طولية توازى خطوط الغاب الذى صنعت منه الشندة .

(٢) أودة الشريعة : هى أودة الفرن فيها يخبز البتَّاو ويصنع الجبن ، ويفقس البيض وتبيت الكتاكيت ويخزّن السمن ، فهى مخبز ومطبخ وكرار ومعمل تفريخ دواجن .

حول الطبلية جالسون ، يبلعون الطعام دون مضغ فعقولهم مشغولة متعجلة ... الليلة سيأتى قاعود ليوقف أبا كف عند حده .

* * *

أصبح الآن فى كل بيت حنفية .. وأحيانًا سيفون .. لكن «الحنفية» ظلّت موئل العيال فى اللعب والمراهقين فى ضرب المواعيد ، عندها يربط تجار البلاستيك والفراخ الجوابون حميرهم المنهكة ، وعندها يربض قصّاصو الحمير بمقصاتهم الطويلة وشفراتهم الصدئة فى انتظار زبائنهم من الجحوش المعجبانية التى تحرص على أن ينقش القصاص على كَفْلها ثلاثة أهرام وعلمًا .

جاء أبو كف وشرع يُقَسِّم فريقى اللعب تمامًا كما يفعل كل يوم .. سيل من العجاف فى فريق ... وبضعة عناتيل فى فريق آخر يرأسه أبو كف .. كان آخر اعتراض على هذا التقسيم قد وقع منذ نحو شهرين ... صرخ أحد العيال ... مش لاعب .. كل يوم تقسموها وتلاعبونا وتغلبونا ... مش لاعب .. هه ... ومحدش كمان ها يلعب ... وكما فى كل مرة ... وقعت المصافحة الشيطانية ... صَرَخَ الولد .. وانسحب مكسوفًا .. وضحك العناتيل والمنافقون وجرى اللعب تمامًا كما أراد أبو كف .

جاء الولد نفسه الليلة .. وقرر أن يعاند أبا كف ... ثم يدع المصافحة لقاعود ... هكذا رسم قاعود سيناريو اللقاء ... وفعلاً ... بدأ أبو كف التقسيم ... معه فى الفريق ثلاثة .. وفريق الخصم خمسة عشر ... تصوَّر ! استفزاز واللّه ... المهم .. أن الولد المتفق عليه صرخ بجدّية : غلط ... ومفيش لعب ... بجلافة وغباء مد أبو كف يده ... وابتسم « رفاقه » .. لكن الولد بدلاً من أن يمدّ يده إليه جرى إلى أول الطريق ... ليدعو قاعود الذى كان قد وصل إلى الحنفية .. وعاد به ... ليزداد ضحك « الرفاق » من هذا الأعمى الذى يجرُّ كسيحًا .

متى آخر مرة نط فيها قاعود سوراً أو تسلق شجرة ؟ إنه منذ سنة تقريباً لم يلعب معهم ولم يسمعوا صيحة نصره : لا أنزل ولا أتنازل إلاّ بالديك الرومى .. لقد بات قاعود فى حسابات رفاق أبى كف «خَرَعًا» عاجزاً عن المواجهة ، ومع ذلك فقد كان قاعود واثقًا من النصر ... وضع يده فى كف أبى كف .. وبدأ هذا الضغط .. بإصرار وقسوة .. وقاعود وجهه هادئ باسم بتحد وسخرية واحتقار .

زاد الضغط .. حتى إن وجه أبى كف .. احمر جداً .. وبرزت عروق رقبته .. ليجبر قاعود على الصراخ ... لكن .. أبداً ... على جثتى ... هكذا كان قاعود قد قرر فى عناد .

تفاجأ الجميع ... حتى أكثرهم تفاؤلاً وأوسعهم خيالاً حين سحب أبو كف يده .. وسلّم بالفشل ... بعد أن كادت يد قاعود تقوده إلى

الجنون ... إنها ليست يد - هكذا حدّث أبو كف رفاقه - إنها طريّة ومراوغة .. قاعود لا يصلِّب كفّه .. لا يناطح صلابة بصلابة ... بل يصطنع ليونة عجيبة فيدع عظام كفه تزوغ في اللحم والدم ... فلا يجعلها الضغط تصطك وتكاد تتكسر ، بل تنضغط ثم تعود إلى شكلها الأول بعد أن تخف القبضة عليها ... لقد تركها لمرونتها الذاتية وقدرتها على الانكماش والتقلص ثم التمدد والانفراج ... هذا الكر والفرّ في عظام كف قاعود وفقرات أصابعه جعل الألم لا يكاد يذكر .. فحافظ على ثبات قسمات وجهه ، بل إنه كان يبتسم بمكر ... ويغمز للعيال فتنط قلوبهم فرحًا ... هكذا أعلن التحدِّي في وضوح دون أن يظن أبو كف أن في تثني عظامه ضعفًا .

قاعود أمره سهل ... المهم ألا يعلم العيال هذه الطريقة الملعونة ... هكذا تناجي العناتيل بعد الهزيمة .

لكن قاعوداً كان قد ترك رسائل الغرام ... وبدأ يعلِّم العيال ... وقد كان التعليم - أيضًا - عند الحنفية .

* * *

تقول نظرية الامتداد الإقليمى – إحدى نظريات القانون الدولى – إن أراضى السفارات هى أراض أجنبية .. أى أن إقليم الدولة الأجنبية «يمتدّ» ليشمل أرض السفارة الواقعة فى قلب عاصمة الدولة المضيفة ... ولأن القاهرة عاصمة كريمة فإن الإقليم الأجنبى يمتد فيها كثيراً .. ليسع الشوارع المحيطة بالسفارة والمنافذ والمداخل الموصلة إلى هذه الشوارع .. حيث يقوم بمهام حرس الحدود عند هذه المنافذ ضباط شرطة (غالبًا شباب) ومعهم فيلق من أمناء الشرطة الذين تؤكد وجوههم الرخوة أنهم دلتاويون أقحاح .

الزحام فى هذه التخوم رهيب .. وقواعد المرور غامضة .. أما الشوارع فجميعها أحادية الاتجاه ، وأما الأرصفة فغير موجودة بالمرة .. لقد احتلتها السيارات التى تكدست وتلاصقت واحتكت على نحو يجعل القادم بسيارته حيران متورطًا .. إن وجد لها مكانًا فهو جدع ... وأما السيَّاس (المنادون) فإن البلطجة فى دينهم علنية والإتاوات مسعّرة والأمان مفقود ... إذا لم تكن سيارتك باذخة ، فإنك عندهم منبوذ حتى وإن كنت من سكان الحى العريق ؛ إذ الثراء عندهم قرين النفوذ ، وهم ممن يخاف ولا يختشى .

* * *

الدكتور حسين مدرس مساعد بكلية الصيدلة .. وهو بشهادة الجميع (عفريت) فى الكيمياء غير العضوية ... وأن تكون عفريتًا فى شيء فهذه منحة من اللّه ... إن لم تستثمرها فأنت عبيط ، والدكتور حسين ليسَ عبيطًا .

الدروس الخصوصية ممنوعة فى لائحة الجامعة ، والعقوبة عليها الفصل ، لكن رئيس الجامعة لم يسْعَ إلى تطبيقها أبدًا ، والعميد متفهِّم يترك هذه الأمور تمر تحت أنفه دون أن يتصلب ، فهل نطلب من الدكتور حسين أن يكون ملكيًا أكثر من الملك ؟ ، ثم إن دخول السادة أعضاء هيئة التدريس هزيلة ... ولأن منْ لا يرضى بالقليل - كما يقول أبيقور - لا يرضى أبدًا ، فإن الدكتور حسين قرر تجربة فكرة الدروس ؛ إذ هو بحاجة إلى أن يغيِّر سيارته حتى لا يتحرّش به المنادون حين يمارس حقه الشرعى البسيط فى أن تبيت سيارته أمام بيته الكائن بذلك الشارع المسكون بجحافل السفارات والقنصليات والملحقيات الثقافية .

* * *

طلاب الصيدلة - بحسب الأصل - نُجباء ، فهم أصحاب الدرجات الأعلى فى الثانوية العامة ... لكن النجاح لا علاقة له بالنجابة ، ثم إن الكيمياء غير العضوية وإن كانت من المواد السهلة فإن كتابها هذا العام معقّد .. على عقل الطالب أن يكون مخزنًا ليحتمل زحام صفحاته التى

لا تنتهى ... إذن فالحل كما يقول الطلاب الأقدم هو درس عند الدكتور حسين ، ليلخِّص لك الكتاب الكبير المخيف إلى مذكرة مختصرة ليس فيها إلاّ الموضوعات المهمة ... فإذا بدأت المذاكرة متأخراً فإنك ستجد على أكثر الموضوعات أهميَّة نجمة أو ثلاث علامات (صح) ... ولأن أيمن تأخر جداً فى المذاكرة - لأن الكتب فى الواقع وزِّعت متأخرة - فإنه قد اضطر إلى أن يسجل اسمه فى كشف الراغبين فى درس أسبوعى فى منزل الدكتور حسين .. رغم أن بينه وبين هذا البيت مسير يوم وليلة بلغة الصحراء ، أو ثلاث مواصلات بلغة هذه الأيام .

* * *

من خلف الحاجز الأسمنتى العريض المخطط الواقف بصفاقة فى مدخل شارع الدكتور حسين ، هتف أمين الشرطة الكهل بصوت باص منفِّر لا ودَّ فيه مخاطباً أيمن :

- رايح فين يا با شمهندس ؟

ليس فى حىّ أيمن حواجز ولا أمناء .. لذا أدهشه السؤال .. أراد ببساطة أن يجيب : رايح للدكتور حسين آخد درس كيمياء غير عضوية ... لكنه تذكر أن هذه الدروس ممنوعة فربما أدى تصريحه هذا إلى « تناثر » الكلام وإيذاء الدكتور حسين ... لذا فإنه ناور وقال :

- بتسأل ليه ؟

بجَلافة أجاب الأمين :

- مش شغلك .. انت تجاوب وبس .. رايح فين ؟

بمكر وازدراء أجاب أيمن :

- زيارة علمية .

كان لا يزال مشفقًا من التصريح .. وفى الآن ذاته كان لا يريد أن يكون كلامه كذبًا صِرْفًا .. من أجل هذا آثر أن يوارب لكن الأمين كان قد ارتاب فيه .. فقال :

- انت غلباوى .. تعال معايا للباشا .

الباشا المذكور نقيب تخرج منذ ثلاث سنوات ، أى أنه يطرق أبواب عامه الخامس والعشرين .. وهذا يعنى أن فارق العمر بينه وبين أيمن أقل من أن يذكر ومع ذلك فإنه نظر إليه دون اهتمام من خلف نظارته الشمسية السوداء العريضة التى لم يكن بحاجة إليها .. لأن النور الذى دعاه اللّه نهاراً كان قد ولّى ... والظلمة التى دعاها اللّه ليلاً كانت قد بدأت تزحف .. فضلاً عن أنه كانت تظله شجرة بوانسيانا عتيقة تحجب عنه لفح الشمس وتسقط عليه ورقها البيضاوى الصغير الذى كان يسليه نفضه عن كتافاته كلما تمطع وتثاءب فى نوبتجيته الطويلة المملة .

قدّر الضابط الشاب أن أيمن يصغره ببضع سنين لا تزيد على عدد أصابع الشمبانزى .. كان النقيب يحب أن يشبه سنوات عمره بأصابع الشمبانزى فإذا قيل له لماذا ؟ قال لأنها طويلة سوداء وجدباء عاشت آلاف السنين فلم تصنع حضارة ، كان سيادته ممن يحبون نقد

ذواتهم بتشبيهات مماثلة .. لا عن تواضع ... بل هكذا كهجاء الحطيئة .. لله في لله .

قال النقيب :

– تعال يا ابني .

لم تكن اللهجة المتعجرفة للضابط الشاب هي التي أقلقت أيمن ... إنما الذي أزعجه هو « تكبير » الموضوع ، كان يريد أن يمر بسلام .. أما هذه المناقشات فلا يحبها ... قرص الخوف أضلعه بفظاظة لم يألفها إلاّ قبل الامتحانات الشفوية أمام الدكاترة غير الموضوعيين ... ألقى التحية بهدوء بعد أن اقترب من الضابط لمسافة آمنة .

لكن الضابط لم يرد التحية ... بل قال ببرود :

– بطاقتك .

فك أيمن أزرار جيب بنطلونه الذي كان قد أحكم غلقه حتى لا يُسرق في الأتوبيس .. وأخرج حافظة نقوده ومنها سحب البطاقة .. وقدّمها إلى الضابط بوقار .

قرأ الضابط من تحت العدسات السوداء بصوت عال فيه نبرة استخفاف سافرة :

– « طالب بكلية الصيدلة » .. عاملين شطار ... ومجاميع كبيرة ... وبعدين تيجوا من آخر بلاد المسلمين عشان تاخدوا دروس !

صاح أيمن مذعوراً :

– أنا مش جاى آخد درس .

– أمّال رايح فين ؟

بجرأة لم يكن من عادتها أن تواتى أيمن قال :

– وانت مالك ؟!

قهقه الضابط عاليًا ورمى ببطاقة أيمن إلى الأرض ثم أصدر من حلقه صوتًا مألوفًا لدى الخنازير البرية ... أتبعه بسباب موجه إلى آل أيمن .. سباب لو كان صادقًا ما كان أبو أيمن آدميًا .. وما كانت أُمه عفيفة .

التقط أيمن البطاقة .. وقال متوعّداً بلهجة فيها ثقة كبيرة :

– واللّه لتشوف ... انت ما تعرفش قرايبى مين ؟ هاشكيك لمنظّمات حقوق الإنسان ... هاتشوف ... ثم مضى يجتاز الحواجز الأسمنتية المتعاقبة التى تملأ شارع الدكتور حسين .

* * *

سمع الضابط من قبل وعيداً كثيراً بشكايات لا حصر لها تكوّن له منها خبرة يستطيع بها التمييز بين التهويش والتهديد الحقيقى الذى يشكل مصدر خطر فعلى .

لكن خبرته فى ذلك اليوم وقفت حائرة ... لم تسعفه التجارب ولا الحنكة ولا الفراسة الصناعى التى تتشكل مع الأيام عند بعض رجال الأمن .

كانت لهجة أيمن حاسمة .. فيها قوة غريبة ... ترى من أقرباؤه هؤلاء ؟ هل لأحدٍ منهم صلة بالوزارة ؟ ربما كانوا هم أنفسهم فى الوزارة .. ثم ما هذه المنظمات الملعونة ؟ .. بلاوى واللّه ولم تكن فى الحسبان . هل أناديه وأعتذر ؟ ... لا .. هذا مهين ... هل ألاطفه وأمتص غضبه ؟ ... فإذا تطاول هل سأمنع نفسى من صفعهِ ؟

حضرة الأمين المرافق للضابط لم يكن مثله حائراً ... إنما هو فى الواقع قد أحس لسبب ما .. وبطريقة ما .. أن تهديد أيمن ليس زائفًا .. وأدرك بذات السبب والطريقة أن الضابط الآن حائر .. خائف .. متشكك ... لذا تسلّل ... وتنحنح .. ثم تساءل :

– ممكن فعلاً يشكى يا باشا ؟

بصوت غير واثق أجاب النقيب مداريًا – بفشل – خوفه :

– يا راجل سيبك ده كلام فاضى .

بمكر قال الأمين :

– بس لو قرايبه دول واصلين ... الموضوع يعنى ... يبقى مش تمام ...

خلع الضابط النظارة ... وقال وهو يقمع خوفه المتنامى :

– ده تهويش ... ما تخافش .

لم ييأس الأمين .. بل ألقى في عِبِّ الضابط فأرًا قبيحًا قادرًا على اللعب بوقاحة في كل اتجاه .

– الأمر ما يخلاش يا باشا ... ياما تحت السواهى دواهى .

هنا أخذ الثبات النفسي للضابط يترنَّح ويتهاوى .. لكن الأمين لاحظ أن فى ثباته رمقًا .. فقرر أن يقوم بدور اسفكسيا الخنْق لما بقى لدى الضابط من مقاومة :

– سيبك من « التنظيمات » اللى قال عليها دى يا باشا لكن قرايبه دول يعنى ... ممكن يقرفونا ... والعيار اللى ما يصيبش .. يدوش .

هنا تراقصت أمام النقيب الشاب .. صُوَر نقاط الشرطة فى قرى الصعيد .. بناموسها وبَقّها وحمَّاماتها البشعة ... إن تليفونًا من قرايب هذا « الواد » قمين بنفيه إلى « هناك » لينفق شبابه فى تحرير محاضر حريق المزروعات وسمِّ البهائم ونقب الزرائب ... ذُعِر ، فسأل ذاهلاً :

– تفتكر ؟

لدى مدرِّبى السباحة عصا طويلة حدباء رفيعة ... يمدونها فى الوقت المناسب إلى من يتعلم السباحة حين يعجز عن الطفو ويتهدده الغرق .

مدّ الأمين عصاه :

- نعمل له محضر حشيش ... تعاطى .. سيجارة واحدة هاييجى يركع .. وقرايبه دول هايبوسوا رجلك عشان تسيبه .

مدرب السباحة .. يتقاضى راتبًا لقاء التدريب والإنقاذ بتلك العصا ... لكن الأمين لن يتقاضى هذا الراتب ... بل وثيقة تأمين مدى الخدمة ... فهل سيملك سيادة النقيب بعدئذ محاسبة منقذه على تأخير أو تزويغ أو تزوير أو رشوة ؟

كان الضابط مدركًا لهذا كله ... لكن الغَريقَ لا يفكر ... لذا همس :

- وها نجيب الحشيش منين دلوقتى .. لو فى القسم كانت اتدبرت .

ضحك الأمين فبدت أسنانه القلح ... وفحّ منتصراً وهو يضرب على جيب سترته الميرى :

- جيب السبع ما يخلاش يا باشا .

لا مناص ... مدّ الضابط يده ... ووقع وثيقة التأمين :

- اجرى هاته من قفاه على ما اكتب المحضر .

انطلق الأمين الكهل فى أثر أيمن وهو حريص على ألاّ يفلته ... حرصاً ربما زاد عن حرص الضابط نفسه .

* * *

انحنى سيادة النقيب واتخذ وضع الكتابة ... بقلم فرنساوى أزرق .. على ورقة فلوسكاب « استعارها » من مكتبة قريبة ... ثم أسندها على مجلة ديكور كان يتسلى بها فى الخدمة ... واتكأ على الحاجز الأسمنتى وبدأ يكتب ديباجة المحضر :

« إنه في يوم كذا ... الساعة كذا .. بمعرفتنا نحن النقيب فلان ... اليوم وأثناء تواجدنا بالكمين الثابت بالشارع الفلانى ... لضبط المشتبه فيهم والخارجين على القانون ... شاهدنا شاباً يرتدى الملابس الأفرنجية قادماً نحونا ... وما إن رآنا حتى بدت عليه علامات الشك والريبة ... واستدار عائداً ... فناديناه ... فلم يستجب ... فترجلنا من سيارة الشرطة وتتبعناه ... فقام بإخراج شىء من بين طيات ملابسه وألقاه ... فتتبعنا هذا الشىء ببصرنا حتى استقر أرضاً .. فالتقطناه ... فتبيّن أنه عبارة عن سيجارة ملفوفة محشوة بتبغ مخلوط بمادة تشبهُ جوهر الحشيش المخدر .. فقمنا بـ ... » .

هنا جاء الأمين يلهث قاطعاً استرسال الضابط فى كتابة المحضر « الرسمى » :

– فص ملح « ثم تلبّث حتى التقط أنفاسه » .

فص ملح وداب يا باشا .

صرخ الضابط الشاب :

– يعنى إيه ؟

- زاغ ... مش موجود نهائى ... مالوش أثر .

- انت متأكد ؟

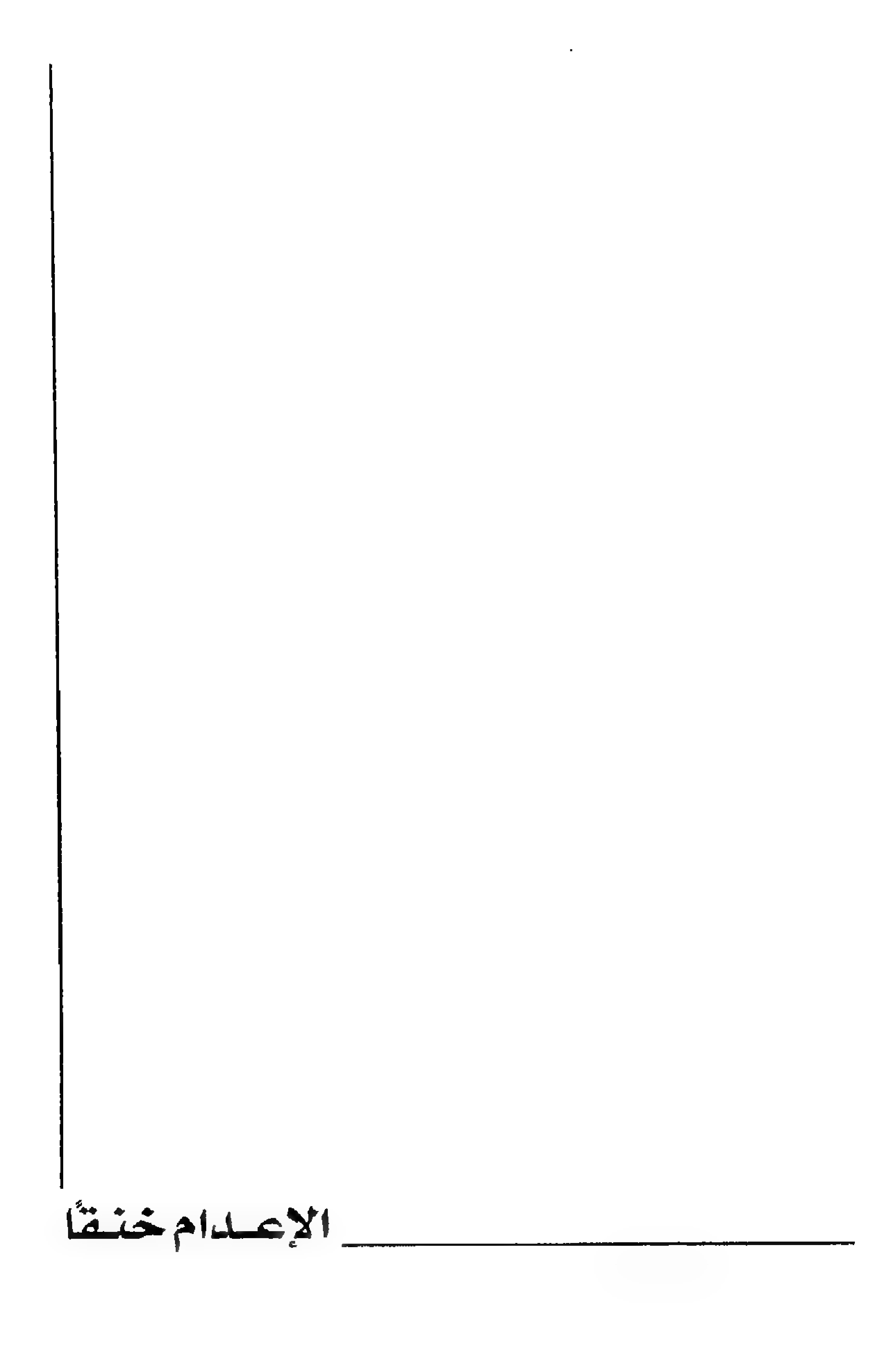
- يا باشا ده أنا نَفَسى اتقطع ... ما لوش أثر سعادتك !

بتسليم كامل ... مزق الضابط « المحضر » وقال متنهداً :

- احنا عملنا اللى علينا ... ربنا يستر ... قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب اللّه لنا ... لسّه السيجارة معاك ؟

أحَشَفًا وسوء كيل ؟ .. ألا يكفى إفلات فرصة العمر منه ؟ ونخسر السيجارة أيضًا ؟ موت وخراب ديار ! .. فك الأمين الزر النحاسى الأصفر الذى تآكل النسر البارز المطبوع على سطحه لفرط احتكاك إبهام الأمين به ، وأخرج السيجارة وقدّمها لسيادة النقيب الذى أشعلها وطفق يشربها وينفث دخانها الأزرق الآخذ فى التصاعد فى حلقات لولبية تتداخل مع الأوراق البيضاوية الخضراء لشجرة البوانسيانا التى تظلل مدخل شارع الدكتور حسين .

* * *



هذه القصة قديمة ... ثم إنها ليست لى ... إنها لصديق عزيز ... عمل بالنيابة العامة فى الصعيد زمنًا .. فكانت له ذكريات شاقنى كثيراً سماعها منه وهو يرويها بلغته القديمة .. التى لا تقبل عليها مطابع هذه الأيام ... وقد رجوته أن يدون بعضها ففعل .. ثم سألته أن يدفع إحداها للنشر فقبل على شرط واحد : ألاّ يشار إلى اسمه أبداً ... ولم يكن من قبول شرطه بد ... فأنا إذًا لص شريف .

وها هو ذا حديثه كما كتبه بيده :

* * *

ليس أشق على المرء من سرد ما يشفق من عدم تصديق المتلقى له .. له ... وما كان أغنانى عن بدء حديثى بالإفصاح عن هذا التخوف .. غير أنى جلست على مقعد السامع لهذا الحديث .. وسمعت مبتدأه ومنتهاه .. وظَلْتُ أقلِّب الأمر على وجوهه .. علّ تمريره على عقلى – كمتلقٍّ غريب – يلقى من القبول أدناه ، إلاّ أنى بؤت ... بالخسران ، وأُبتُ غير قانع بما طفقت أرويه لنفسى .

* * *

« حضرة صاحب العزة / المدعى العام « يقصد : المحامى العام »

أعلمكم بأنى ممتنع عن الطعام والشراب اعتباراً من صباح اليوم ٢٩ ديسمبر .

إمضـاء

أكرم عبد اللطيف عمران

قسم الاستقبال – المستشفى العام »

هذا – إن لم تَخُنِّى ذاكرتِى – نص البرقية التى أرسلها السيد / أكرم وحسب أنها ولا ريب محدثة لدى المرسلة إليه أثرًا بالغًا فيعجّل بلقائه ويسمع لشكواه .. ويرجوه أن يرجع عن عزمه ... حتى لا تزهق روحه ... هذا فيما يظهر ما همس به ظن مرسل البرقية .. إلاّ أن ظنه كان خائبًا ؛ إذ صندوق بريد المدعى العام حافل ببرقيات مماثلة .. تفيض عن الحصر .. قويّة الشبه إلى درجة التطابق ... ورد سعادة المدّعِى العام عليها واحد لا يتغيَّر .. توقيع غير مقروء .. تعلوه عبارة مائلة .. إيجازها غير مخلّ .. وإن كان غير بليغ .. يقول : لنيابة كذا وتحقق .. أى تكلف النيابة التى ذكرها تحقيق هذه الواقعة ... وقد كان حظ النيابة التى أعمل بها أن اختصت بهذا التحقيق .

* * *

كانت أمسية شديدة البرد تلك التى كلف فيها زميلى سليم بك الانتقال لسؤال الذى أضرب عن طعامه .. وحدث أن أسند إلىّ فى ذات الليلة الانتقال إلى المستشفى الجامعى لسماع شهادة رجل استقرت فى صدره رصاصتان – ولا يزال حيًا – وتدعى عصبته أن جاره هو مطلقهما .

لم يكن بمقر النيابة ليلتئذ سوى أمين سرّ أوحد فرأيت وزميلى – وليس هناك رأى آخر – أن نصحبه معًا لسؤال المجنى عليه صاحب الرصاصتين .. وذلك المجنون صاحب البرقية .

ركبنا سيارة الشرطة .. زرقاء متهالكة .. تجشّم عناء قيادتها شرطى بالغ النحافة .. لم يرحمه البرد .. فأخذ يرتعش كلما مسّه تيار هواء .. ويبدو أن شمس الصيف أيضًا كانت به غير رحيمة ؛ إذ أحالت بشرته إلى لون المسك فلا تكاد تميِّز أصابعه القابضة على مقود السيارة الأسود إلا من أظافره التى انفردت وحدها دون سائر جسده باللون الفاتح ... أما أسنانه .. فلم نرها .. لأنه التزم الصمت وقد أطبق شفتيه تأدبًا .. وأما بياض عينيه فقد غشيته عتامات صفراء كثيرة – من أثر البلهارسيا – أشفقنا أن تحجب عنه الرؤية .. وخشينا أن يزور بنا قاع النيل الذى يلاصق شاطئه طريق المستشفى ... لكن عيون العناية لاحظتنا فوصلنا سالمين .

لدماثة خلق زميلى فإنه أصرّ على أن ننتقل إلى المستشفى الجامعى أولاً لأسأل المصاب الذى اختصصت به .. ثم نمضى بعد ذلك إلى المستشفى العام لسؤال المضرب عن طعامه .

* * *

فور وصولنا إلى المستشفى الجامعى .. تحلّق حولنا جمع كثيف من عصبة المصاب ... ورغم فاجعتهم .. فقد كان بوسعك أن تقرأ فى أعينهم سرورًا خبيثًا ؛ لقد أسعدهم أن حفلت (الحكومة) بأمر جريحهم ... فبادرت بتكليف اثنين من رجالها الانتقال لسؤاله ... وأنهما - أى زميلى وأنا - لن يقبلا ، ما فى ذلك من شك ، بأقل من التأبيدة للغادر الخئون جار مصابهم فى غيطه .. والذى أصر على أن يروى أرضه أولاً .. وحين تمسك المجنى عليه (ولِد عمهم) المسكين المسالم .. اللى عمره ما شتم حد .. حين تمسك بحقه فى أولوية الرىّ .. لأن المسألة مسألة مبدأ وكرامة .. ولا يخلق بمن كان فى وجهه شارب أن ينزل عنها (لاحظنا بعدئذ أن المصاب حليق الشاربين) لهذا كله وقف المجنى عليه فى إباءٍ وشمم يذود عن سلامة مرافق أراضيه (هى فى الواقع قيراطان) فما كان من جار السوء إلاّ أن أعدّ سلاحه القاتل بطبيعته .. وجمع رأيه .. وأعد عدته وتربص بمصابهم .. قاصداً إزهاق روحه .. وما إن ظفر به فى المكان الذى اعتاد مروره فيه حتى أطلق عياريه بصفاقة نادرة .. وكان العياران أوقح من مطلقهما إذ استقرا فى جسد فتاهم كضيف ثقيل .. يأبى الترحُّل .

هذه رواية أهل (القتيل) .. وهذه هى رؤيتهم .. وإذا كان العلم حمّال أوجُه .. فإن الواقع أكثر تحمُّلاً ... وقديماً قالوا إن القاتل أكثر حمقًا وأقل خبثًا من المقتول .. إذ ما كان القاتل ليقدم على جرم كهذا إلاّ بعد أن يضيق ذرعه بِضِعَةِ المقتول وسوء صنيعه ... فينفعل ويثور

ويدفعه نزقه إلى فعل طائش .. يرمى به فى أعماق ليمان .. الموت بالقياس إلى ظلماته رحمة بيِّنة .. وجهة هذا النظر يتولاّها دومًا أهل القاتل ومن يشايعهم من الشهود .. إلاّ أنهم لا يصرّحون بهذا التفسير.. إذ لو أفصحوا لساء مركزه وانقلبوا شهود إثبات .

كان المحقق فى القديم لا يجد عناء فى استخلاص دليل على توافُر نيِّة إزهاق الروح لدى الجانى ... ولم يكن يشق عليه التحقق من قيام أو تخلف ظروف التشديد كالتربص والعزم المعقود وما إليهما ؛ فالشهود فى أغلب الأحوال جهّال .. وهم فى الآن ذاته أقل كذبًا مما هم عليه الآن .. وهم إن غيّروا الحقائق فبسذاجة .. ومن دون حذر .. وسرعان ما كان المحقق يكشف زيفهم إن كان ثمة زيف .. وتناقض أقوالهم إن كان ثمة تناقض .. أما هذه الأيام .. فالكذب حرفة .. والزور صناعة .. ونصوص قانون العقوبات يحفظها الأطفال فى القرى قبل حروف الهجاء وقبل جدول الضرب .

تجد ابن السابعة يقول بلسانه الألثغ الذى يقلب الراء لامًا « ده كان قصده يموتنى .. ده بيضلبنى ضلب موت » ... والمرأة الأمية تروى لك فى سذاجة مصطنعة أن نجلها المسكين « يا حبة عينى » كان شهمًا.. محبوبًا من الجميع .. وأن الجانى « اللّه يحرق قلب أمه عليه » قد وضع له السم فى الشاى مرارًا .. قبل ذلك اليوم الذى أطلق فيه النار عليه ... وحين يُسَرُّ المحقق لتنبهه إلى تناقض أقوالها فيسألها : كيف اجتمعا لشرب الشاى وقد استشرى الخلاف بينهما زمنًا ؟ .. فإنها لا تسمح

لسروره أن يطول .. فهى لا ترتاب ولا تتلعثم ... ولا يحدث السؤال فيها أثراً خيل إلى المحقق أنه ولا ريب محدثه ... بل تظل ثابتة الجنان غير حافلة بشَركه المفصوح ساخرة فى قرارة نفسها من بساطة تفكيره ... باسمة فى إشفاق لقلة درايته .. وتنطلق موضّحة له : إن الجانى لأنه خبيث كأفعى ... حاقد كشيطان .. قد دعا نجلها إلى جلسات صلح خادعة ... ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .. القِرَى فيها شراب طيب الطعم ... ناقع السمّ ... لكن اللّه نجّاه منها جميعًا ... وتضيف : إنه كان يؤثر القتل بطريق السم لأنه هادئ .. ميسورٌ تفادى انكشافه ؛ برشوة مفتش الصحة الذى سيثبت فى تقريره أن ابنها قد أودى به سردين فاسد ... يشجِّعه على هذا الكذب المكتوب ذيوع غش البقالين – وهى بهذا تغمز جاراً لها يعمل بقالاً ويأبى أن يبيع لها بالأجل ورَفَضَ أخوه فى الشتاء الماضى الإصهار إلى أخيها – ... ثم تختتم قائلة : إن الغادر بعد أن أيس من هذا الطريق – التسميم – أطلق عياريه .. هكذا .. فى وضح النهار ... فأين العدل يا « بيه » ؟!

* * *

استغرقتنى هذه المراوغات حتى منتصف الليل ... وزميلى ينتظر فى صبر هادئ وأدب جم .. يشفق أن يؤذينى دخان سجائره فيستأذن ثم يعود حثيثًا حتى لا أظنه ملّ انتظارى .. وحين يقذف المجنى عليه ... طريح الفراش ... أكذوبة رائعة .. من مثل ما عرضت لك ... يهب الزميل وجهه نصف ابتسامة فأرد عليها بمثلها ... نخفف بذلك تقطيب وجوهنا

الذى يفرضه علينا « جو » العمل ... ويحمِّل كواهلنا .. أعماراً فوق أعمارنا ... أعلم أنى قد أطلت عليك دون أن أبلغ بعد بيت القصيد ... بل حتى دون أن أجاوز الأطلال ... ولكن ها هو السؤال الحبيب إلى الجميع - أخصُّ هنا أمين السر - هل لديك أقوال أخرى ؟.. ثم ها هو المصاب يبصم .. وها هى السيارة إلى المستشفى العام تنطلق .. لسؤال صاحب البرقية البارحة .

* * *

برفقة ذات السائق والسيارة وأمين السر.. بلغنا المستشفى العام .. ولدى وصول ممثل للسلطة .. أى سلطة ... إلى مستشفى عام .. أى مستشفى عام .. ترى همساً متقطعًا ... يأتى بعده أدلاّء متطوعون يسألون (سعادة الباشا) أين يريد - وهم بمقصده عالمون - ثم يعرّجون به على ممرات رخامية .. نظيفة .. حسنة الإضاءة .. لا تطل عليها حجرات المرضى .. بل مكاتب السيد مدير المستشفى والسادة رؤساء الأقسام ... همس أجهزة التكييف مع رائحة التعقيم والضوء المتهادى فى سكون الممر .. كل هذه المؤثرات تؤتى أكلها فى تخدير الضيف .. وما إن يتخدّر سيادته .. حتى يصل به القوم إلى حجرة حسنة الأثاث .. يحمل إليها على محفة نظيفة .. المصاب المراد سؤاله .

لحسن الحظ .. لم يرنا الأدلاّء .. ولم يهمس لهم أحد بإرشادنا ... أستغفر اللّه .. بل بتضليلنا ... فهذا الذى يفعلونه هو التيه بعينه ... هو كصرف أم العروس الدميمة – والدمامة هنا وصف لكلتيهما – لعيون الخاطب عن شواهد قبح كريمتها فتغشّيها بقلائد وامضة .. فلا يرى المسكين إلاّ بريقًا خادعًا على جيد عاطل من الجمال .

لم يرنا الأدلاّء ... فسرنا .. أمامنا الحراسة وخلفنا أمين السر .. نسترشد بلوحات خشبية وأخرى نحاسية بعضها باهت طلاؤه .. وبعضها تم تغيير مكان القسم الذى تشير إليه اللوحة .. فصار مكتب الطبيب النوبتجى مرحاضًا .. ومع ذلك ظلت اللوحة القديمة شامخة ... لا يفضح زيفها إلاّ خبث الرائحة .

فى الطرقات التى مررنا بها .. رأينا على البلاط القذر – فلا رخام هنا – أنابيب ملوثة بالدماء .. عبوات نصف فارغة لمحاليل سكرية .. أدوات حقن .. جميعها ملقى على الأرض كأنما عن عمد لتتكفل بوأد آمال الطامحين إلى الشفاء .

قسم الأمراض الباطنة (نساء) بابه مفتوح على مصراعيه ... لا لظرف طارئ ... وإنما هو مثبت هكذا .. على الوضع المفتوح .. حتى الحياء هنا مفقود .. أما الإهمال .. ففى كل ركن يجرح الحواس .

ها هو تومرجى نابه .. فطن إلى أن زيارة كهذه لا بد تقصد الممتنع عن الطعام .

صاح مرحِّبًا :

– تفضلوا .. أهلاً وسهلاً .. من هنا .. من هنا .. وقادنا بكياسة وحسن أدب إلى ممر نظيف كأن الأرض انشقت عنه ... وبعد طول مسير ... بلغنا الغرفة المقصودة ... وحين درت بعينى وجدت أن الممر القذر الذى كنّا نسير فيه كان سيوصلنا بعد خطوتين إلى ذات الغرفة ؛ لكنها آفة التضليل .

* * *

بلكزة قوية فى كتف جسد متكوم يعطى الدالف للحجرة ظهره أيقظ التومرجى صاحبنا المضرب عن طعامه :

– قم يا عم أكرم ... عندك ضيوف .

فرك عينيه .. بعد أن استدار نصف استدارة ... تعرف هويتنا .. هكذا بدا عليه ... ثم عاد يولينا ظهره ... فأومأنا إلى التومرجى أن ينصرف .. وبقينا فى الغرفة نحن الأربعة : زميلى وأنا .. وأكرم .. وأمين السر .

– قم يا حاج .. نحن هنا لزيارتك .. والاطمئنان عليك .

هكذا ابتدر زميلى الحوار ليبث الألفة فى نفس صاحبنا ... واستجابة لمبادرته .. استدار الرجل ليعطينا وجهًا عليه آلاف السنين ...

ورأسًا أشعث ولحية كثة .. وبشرة سمراء محببة .. حدّق فى وجوهنا فتأكد له ظنه .. وابتسم باستهانة وهو يهمس ببيت أبى العلاء :

- تعب كلها الحياة ...

قاطعناه زميلى وأنا .. لنتمم البيت .. ولأقول له : لكن العجب الأكبر يا عم أكرم يكون من الحريص على الفناء .

فارقت الابتسامة المستهينة شفتيه .. وانتصب جالسًا يحدجنا ببصره .. ثم هو يخفضه ليغيب فى إطراق طويل .

سألته :

- فى أى الجامعات تخرجت ؟

- فى جامعة الحياة .

ها قد عادت نغمة الاستهانة .. إنّه يريد أن يفهمنا أنه تعلم ذاتيًا .. لكن بياناته فى تذكرة العلاج - التى طالعناها قبل دخول الغرفة - تنطق بغير ذلك .

قلت :

- لكن أوراقك يا حاج تقول إنك مهندس إلكترونيات .

قهقه ساخرًا .. وقال :

- ياه .. وتاجر أعشاب .. ومقاول إنشاءات وعمدة تجارة الفضة وسن الفيل فى الوادى كلّه ...

أنست منه ميلاً للاسترسال فى الحديث فأردت تغذية هذا الميل ... لذا قلت :

- أنا بصراحة .. لا أفهمك !

عدّل من جلسته لتكون مريحة أكثر ... ثم قال :

- تريد أن تسمع ؟ .. إذن فاسمع ...!

وبدأنا نسمع .

* * *

بعد الثانوية العامة ... وقد كان هذا من عقود طويلة ... زجّ بى أهلى إلى أكاديمية ضباط الشرطة (مدرسة البوليس) .. بعد شهرين سحبت أوراقى منها وأودعت السترة الميرى أقرب صندوق قمامة ... دون أن أدرى لذلك سببًا واضحًا ، لكنى رغم كل ما لحق بى .. لم أندم على هذه الخطوة أبداً ، قصدت بعد ذلك إلى كلية الهندسة ... وقد كانت درجاتى تؤهلنى لدخولها ... وكان أساتذتى - أصلحهم الله - يحسبوننى نابهًا ... قبلتنى الكلية ... ولحقت بركب الدارسين رغم تأخرى ... وقبل أن ينتصف العام كنت قد أدمنت الكتب الحمراء والفودكا والغليون ... وقبل أن ينتهى كنت خلف أسوار عالية ... خرجت من أغلالها دون أن أدرى لماذا دخلت ولا لماذا خرجت ... فى العام التالى كنت فى الاتجاه المعاكس ... أطلقت لحيتى ... وطلقت الغليون والكحول ..

واستبدلت بهما المسواك والقرفة ... وقبل أن ينتهى العام - أيضًا - كنت خلف أسوار أعلى ... ثم كان أن تخرجت من المعهد العالى للإلكترونيات ؛ لأن الهندسة فصلتنى لتكرار رسوبى .. تخرجت من المعهد - وهذه قفزة أوفر بها عليك تاريخًا لعلّه لا يشغلك - لأجد نفسى أتاجر فى سن الفيل .

- مهندس إلكترونيات يتاجر فى سن الفيل ؟!

بلهجة مستفزة قاطعته .. لأثير انفعاله .. إذ كان يحنقنى خفضه لصوته ... فأردت أن أستحثه على رفعه .. لكنه بهدوء - يغيظ - أجاب :

- السكرتير الذى يرافقك تخرج إما فى كلية التجارة أو كلية الزراعة .. فأين الصلة وأين الرابطة ؟

حقًا ردُّهُ أحرجنى ... فقد كان أمين السرّ فعلاً خريج كلية التجارة ... وقد جاهد ذهنى فيما مضى مرارًا فى أن يجد وشيجة قربى بين ميزان المدفوعات والحساب الجارى وبين التحقيق (السين جيم) .. فلم أحر جوابًا ... أما كيف عرف أكرم أن الرجل خريج تجارة .. فهو ما لم يدع لى أكرم نفسه متسعًا للتفكير فيه ... إذ رمق زميلى بنظرة مستطلعة ... وكأنه لم يره من قبل .. ثم سأله :

- حضرتك من رجال الضبط ؟

هبطت فى دركات من الحرج .. أولاً .. لأن التحقيق أصلاً من اختصاص زميلى .. وأنا الذى لا ناقة لى فى الأمر ولا حتى شاة سرقت

الحوار منه وسرقت قبل ذلك وقت أمين السر .. وثانيًا .. لأنه ما من رجل قضاء حق تظن به صفة غير صفته بالغًا ما بلغ سمو الصفة المظنونة .. إلاّ ركبه حرج عظيم ؛ لذا تدخلت معالجًا :

– سليم بك يا حاج .. زميلى فى العمل .. وهو أخ أكبر .. وأنا هنا لأحظى بشرف مرافقته فحسب ، ولحسن حظك أن سيادته هو المختص بسؤالك .

تبسم زميلى شاكرًا انسحابى وتقديمى له .. فقرأت فى وجهه – وكأنى أنا أيضًا أراه للمرة الأولى – تسبيبًا كافيًا لظن أكرم به ... إن قسماته لتوحى حقًّا بما همس به ظن الرجل .. فهو نارى النظرة .. حاد الأنف .. مزموم الشفتين أبدًا معقود الحاجبين أبدًا ... كان أثناء الحديث قد كلف الحارس بشراء علبة سجائر ، فى لهجة آمرة ، حسمها غريب ، هو لا ينتظر من مرؤوس ولا تابع إلاّ خضوعًا تامًّا ، لا قهرًا وتجبرًا ، بل تفعيلاً لمعنى السلطة الرئاسية .. والنظام ... هو لا يطلب بل يأمر وهذا القناع الصارم يخفى طيب أرومة وكرم نشأة لا حد لهما .. انفرج حاجباه – وهذا نادر – ثم تحركت شفتاه وقال :

– نحن هنا يا حاج لنصحك فحسب .. لسنا بصدد تحقيق أو مساءلة .. ما تفعله يخالف الأديان .. وقد جئنا لإرشادك لا أكثر .

هتف أكرم :

– تعاليم السماء .. لن تبجلها مثلى .. القرآن الكريم حفظته ثم نسيته ثم أعدت حفظه .. العهد القديم .. جلبت من تاجر كتب قديمة

نصًا ألمانيًا له وتعلمت الألمانية فقط لأقرأه .. لأن طبعة الكتاب راقتنى ! مسألة العقيدة عندى لا تقبل مساومة .. لكن أن أعيش ككلب ضال فهو ما لن يكون أبدًا .

غلبنى فضولى فتساءلت :

– كلب ضال ! .. كيف ؟!

– ألم أكمل لك ؟ آه لم أكمل .. صحيح ! ... أين توقفت ؟ ... نعم ... عند سن الفيل .. الآن تذكرت – وكان يبدو ناسيًا حقًا – تاجرت لسنوات فى سن الفيل أستورده وأصنع منه تماثيل فرعونية ورومانية .. كنت أملك ورشًا لنحته تفوق عدد أناملكم مجتمعة .. أسست بيتًا من طابقين وحديقة ، ولصق بوابته لافتة نحاسية تقول : ڤيلا المهندس أكرم عمران .. وفى الحديقة كانت تربض سيارتان .. بل ثلاث .. كنت ثريًا حقًا ! .. ثم جاءت للحكومة نزوة .. فزجت بنفسها فى اتفاقية دولية حظرت معها استيراد سن الفيل .. الطريف فى الأمر أنى كنت قد ألقيت بأموالى كلها فى شحنة كبرى كانت قادمة من الشرق الأقصى .. كان هذا منذ زمن بعيد ... المهم أن الشحنة صودرت .. والمدين صار دائنًا .. والدائن صار مدينًا .. بِيعَ المنزل وسيارتان .. وأفلحت فى إخفاء الثالثة .. لأبدأ بثمنها رحلة جديدة ، والمضحك هو أن النشاط الجديد منبت الصلة – أيضًا – بتخصصى الدراسى .. كان فى هذه المرة الإتجار فى الفضة .

عاد تطفلي يُلح ؛ فسألته :

– كل هذا وأنت وحيد أعزب ؟

ضحك .. وقال :

– تريدني أن أحدثك عن العائلة الموقرة ؟! لا بأس ! ليكن .. اسمع يا سيدى .. فى أوج ثرائى من التجارة الأولى . كانت صِلاَتى برجال الضبط – وهنا غمز زميلى بنظرة تحمل لهجة الاعتذار الباسم – قوية ، وحدث أن كنت فى زيارة لأحدهم فى مكتبه .. احتفى بقدومى وأجلسنى على مقعد دان من مقعده ... يواجه باب المكتب ويسمح للجالس عليه برؤية ثلثى الممر الذى يصل المكتب بالدَّرَج الموصل إلى الطابق السفلى.. ضغط الضابط الصديق زراً فدق فى الممر جرس مزعج ، وانفرج الباب عن شرطى قصير لا أدرى كيف قُبِل فى اختبار الطول .. إن كان ثمة اختبار ، المهم أنه لِقِصَرِه سمح لبصرى بالتقاط أحد أهم المشاهد ذات الأثر فى حياتى .. فتاة تنتحب .. وتعاند رجلين من خفراء القسم يقتادانها إلى غرفة الحجز – أطلت عليكم .. هه ؟ عذراً فهذا المشهد جوهرى فى حياتى – لا أدرى ما الذى دفعنى إلى أن أهمس فى أذن صديقى صاحب المكتب أن يستدعى هذه الفتاة .. لم يتجاهل طلبى بل أشار للعسكرى القصير بأن يتنحى عن الباب .. ثم صاح :

– يا حسين .. يا عبد الموجود .

– أفندم .

- تعالوا .

استدار الخفيران عائدين بعد أن كانت أقدامهما قد جاوزت جزء الممر المواجه للمكتب .. وعند الباب تحيّرا ... هل عليهما الدخول بالفتاة أم تركها فى حراسة آخرين ؟ وحيث لا تعليمات فقد ثبتا واقفين عند الباب - فهم إذن من القائلين بالوقف - على أى حال قرأ الصديق حيرتهما .. فأشار أن أدخلاها .. وليتهما ما أدخلاها ! كنت حتى لحظتئذ لم أر وجهها .. كان الممر لا يعطينى إلاّ منظراً جانبيًّا .. (بروفيل) فحسب وها هى ذى تطل بذلك الوجه .. وجه لا تستطيع معه إلاّ الاستسلام .. استسلام كامل يا سعادة النائب (وكانت المرة الأولى التى يخاطبنى فيها بهذا اللقب أو بأى لقب) ، سألها الضابط الصديق :

- ما تهمتك ؟

لم تُجِب .. فصفعها عبد الموجود (وإذا سألتنى كيف عرفت أن الذى صفعها هو عبد الموجود أجبتك أنى عرفت هذا مثلما عرفت مؤهل سكرتيرك) ثم أجاب عنها :

- آداب يا فندم .

صاحت :

- واللّه مظلومة .

ولم يكن أثر صوتها بأقل من أثر وجهها على أى حال ! انفطر قلبى .. فهمست للصديق :

- أحسبها صادقة :

لم يقطع برأى لكنه وعد بالتحرى .. وكان أن غادرت مجلسه لأحضر فى صباح اليوم التالى ليوقفنى على ما وصلت إليه تحرياته ... لكن المفاجأة كانت فى اتصاله بى فى مساء اليوم ذاته ليقول ضاحكًا : خاب ظنك يا صديقى ... الفتاة ذات ماض طويل ... عقد الصمت لسانى فلم أجب ، فقط شكرته ثم مضيت فى غوايتى كالأعمى .. انتظرتها حتى أفرج عنها من حبسها الاحتياطى .. وكنت قد علمت أن أهلها نفضوا أيديهم منها مخافة الشين .. فصارت بلا مأوى .. استأجرت لها مسكنًا .. ووكلت لها محاميًا .. واكتريت لها خادمًا، وقبل البراءة - التى كانت لعيب فى إجراءات القبض لا لطهارة ثوبها - كنت قد تزوجتها ... وهكذا ببساطة صرت زوجًا لغانية ... جاءت قبل دخولكم بثوان مع أهلها - الذين لفظوها آنفًا - ومعهم أولادى - يا لوقاحتها - جاءت لتخبرنى أنها بعد إفلاسى الأخير قد أقامت دعوى تطليق .

... قاطعته :

- بسبب سن الفيل ؟

- ذلك كان الإفلاس الأول .

- وكم مرة أفلست ؟

- ماديًا أم روحيًا ؟

- بلا سفسطة لو سمحت !

- ماديًا : بين الخمسين والستين .

- أنت تمزح !

- ليس من دأبى المزاح مع رجال القضاء !

أجبت يائسًا :

- إذن أكمل ..

بلا مبالاة .. استأنف :

- جاءت لتخبرنى أن على أن أعتبر نفسى غريبًا عنها وعن أولادها .. إنها شيطانة لا أكثر .

قاطعته متسائلاً بنبرة فيها تبكيت .. نبرة ندمت عليها كثيرًا فيما بعد :

- شيطانة ؟! وأين الملاك الذى سحرك بالقسم ؟

- الفرق بين الملاك والشيطان .. موازٍ للفرق بينى يوم رأيتها .. وبين ما أنا عليه الآن .. من سره زمن ساعته أزمان يا باشا !

. . قال زميلى مستفسراً :

– وأولادك ؟

– تخرجوا فى أفضل دور العلم .. لم يتعثر منهم أحد ... ورثوا ذكاء أبيهم – لم أبرأ بعد من لعنة مدح الذات ! – وشيطنة أمهم !

– وكيف كنت تعولهم أيام إفلاسك ؟

– لم يكن إفلاسى يطول (عدا هذا الأخير) .. وكنت فى كل مرة أفلس فيها .. أفلح فى إخفاء مال أبدأ به عملاً جديداً .

توقف عن الحديث فجأة ... ولبث محملقًا فى أمين السر الذى كان قد نام .. وشرع يغط غطيطًا خافتًا ... أيقظناه ... ونظرنا فى ساعاتنا فاكتشفنا أنا قد أطلنا الحديث حقًا .. والذنب ذنبى .. اعتذرت لزميلى عن إضاعة وقته ... وبدأ التحقيق الرسمى .

س : لماذا أضربت عن طعامك ؟

ج : أنا لا أقبل العيش فى دنيا لا تصان فيها مقومات ...

س : ... **ج** : ...

لم يستغرق التحقيق أكثر من خمس دقائق ثم :

س : هل لديك أقوال أخرى ؟

ج : لا ... أتم أقواله .. وتلوناها عليه .. فأقرها ووقع .

انتهى التحقيق .. وانصرفنا فى عجالة .. لكننى عقدت العزم على معاودة زيارته فى مساء اليوم التالى .

* * *

كان ذلك اليوم يوم أربعاء ... انقضى صباحه وظهره وعصره في سرعة نهار الشتاء .. دون أن يقع فيه جديد .. ثم أقبل المساء بهدوئه وسكونه وبرده الذى لا أحبه .. ورغم البرد الشديد ، فقد جددت عزمى على الزيارة .

حملتنى إلى المستشفى العام .. سيارة أجرة عتيقة .. صدم عدادها الخَرِب ركبتى فكاد يمزق البنطلون .. نقدت السائق الثرثار أجره .. ثم مضيت إلى غرفة أكرم ... حين دخلت عليه الحجرة .. كان شبه نائم .. ومولِيًا ظهره للباب .. أحس بدخولى فاستدار وفرك عينيه .. تمامًا كما فعل بالأمس .. ثم ابتسم بل ضحك .. سألته :

– لماذا تضحك ؟

– كنت أعلم أنك لا بد عائد !

– ولماذا ؟

أجاب بثقة :

– لأنك تريد أن تعلم التتمة ! .. هل معك سجائر ؟

- أنا لا أدخن .

- ممتاز ! والقهوة ؟

- للأسف أنا مدمن قهوة .

- خسارة ...

صمت طويلاً .

قلت :

- إذن ؟

- باقى حديث الأمس ؟

- إذا كان هذا لا يؤذيك .

- لا بأس .. وإن كانت الفصول بعد ذلك متشابهة .. أين كان الحديث قد توقف ؟ .. آه .. عند الأولاد ... يا لجحودهم ! .. وصلنى اليوم من أكبرهم - هشام .. خطاب يعلن لى فيه أن صلتهم بى قد انقطعت تماماً .. وأنى إذا حاولت - فقط حاولت - أن أزورهم ، فسألقى ما لا يرضينى ... كتب هذا بخطه الذى ورثه عنى .

صحت دهشاً :

- ولم كل هذا العقوق ؟

أجاب بمرارة :

– لأنى كنت باراً فوق العادة .. فكان علىّ أن أنتظر عقوقًا فوق العادة أيضًا :

أدرك عجبى .. فأكمل مفسراً :

– كنت أعلم أن الإفراط فى التدليل يفسد الأبناء ... لكنهم أبِقوا فى الحقيقة لأسباب أخرى ... أفظعها .. أسلوب أمهم فى الحديث عنى فى سنوات غيابى .

– سنوات غيابك ! أين ؟

– حين بدأ شقاقى معها .. آثرت أن أختفى عن أعين أبنائى .. لأ لا يروا خلافنا عيانًا .. لم أشأ أن أُسمِعهم صراخنا العصبى وسبابنا المتبادل .. والذى كانت تحمل هى منه زاداً لا ينفد ادخرته من بيوت الشرف التى أنقذتها منها ... لقد كان اختفائى عنهم كارثة لنا جميعًا .. لقد زرع بعدى عنهم – وكان أكبرهم لا يزال صبيًا – فى قلوبهم مرارة اليتم المبكر ... وخلا الجو لأمهم لتشحن قلوبهم بالحقد علىّ حتى ملأت الشناءة صدورهم ... أما أنا .. فقد خرجت من البيت إلى الشارع ... وقد كان من الممكن أن أبيت فى محل الإلكترونيات الذى اشتريته فى جولتى الأخيرة قبل آخر إفلاس مررت به .. والذى كانت نزاهتى سببًا فى وقوعه .. إذ كنت قد رفضت رشوة رجال الضرائب الذين كانوا قد عاينوا المحل واطلعوا على الدفاتر ليقدروا الضريبة عليه .. وكانوا قد علموا أن إيراده هزيل .. لكنهم أثبتوا فى تقريرهم أن أرباحه تبلغ

رقمًا يفوق ثمن المحل ذاته ... من أجل هذا أغلق المحل وعُيِّن عليه حارس يحمل بندقية صوت دق كعبها على الرصيف الملاصق للمحل صرف عنّى مجرد التفكير فى مساومته على المبيت حتى بالمخزن الملحق .. ومن هنا بدأت رحلتى مع الشوارع كشحاذ حقيقى .

– انت ! بثقافتك وتاريخك وصلاتك السابقة ؟! لماذا لم تلتحق بأى عمل فى أى من المصانع أو الورش التي كنت تتعامل معها فى نشاطاتك السابقة ؟

– أصحاب تلك الورش .. الزملاء القدامي .. لفظونى بقحة نادرة .. لفظوا من كان يقرضهم بالأجل ومن دون فائدة .. لقد منحت ثقتى دومًا لمن لا يستحق .. تزوجت بغيًا .. وأنجبت أبناءً عاقين .. وصادقت تجارًا أنذالاً .. لماذا يجب أن تستمر حياتى بعد هذا كله ؟ لقد بلغ يأسى يومًا أن فررت من كل هذا الجحود والنكران .. إلى الصحراء .. نعم .. الصحراء .. أسير فيها أيامًا وأشهر ... آكل الفئران والسحالى .. أو تدرى كيف كنت أشرب ؟ لا يمكنك أن تتصور ! كنت أَبْسُطُ منديلى ليلاً على الزلط .. فإذا أقبل الفجر أدرك المنديل بعض الندى .. فصار مبتلاً .. لا .. بل شبه مبتل .. بادرت بعصره لأحظى بقطرات تزيد لهيب الظمأ بدلاً من أن تطفئه .. وكل ما كان من أثرها أن سمحت ببقائى حيًا حتى وصلت إلى واحة صغيرة ... فحسبت أن الفرج أقبل .. وقلت إنهم بدو كرماء .. لكن القدر الذى ألّب على الأبناء والأصدقاء ورجال الضرائب لم يعجزه تغيير طباع البدو ... طرقت جميع الأبواب وغادرت

الواحة كما دخلتها .. وكل ما ظفرت به .. برتقالة - لا أدرى ماذا قذف بها إلى الصحراء - كان قد أصابها العطب .. أكلتها بقشرها الذى غطاه الفطر الأبيض .. ليتنى مت قبل هذا ! .. والذى كان يزيد من احتراقى .. أنى كنت أحمل معى الأوراق الباقية من معاملاتى السابقة .. عقود بيع وشراء على أراض وشقق ومحلات تجارية وسيارات ... وكل قطعة أرض .. أو سيارة ... لها عقدان .. عقد أنا فيه المشترى .. أدفع بسخاء .. وبخط واثق .. زاه .. مشرق أما العقد الثانى على ذات العقار .. فأنا فيه بائع .. أقبض ربع ما سبق لى أن دفعته .. وتوقيعى فيه يشى بمذلة وانكسار لا حد لهما ... لقد احتفظت بصور أوراق معاملاتى وكأنى كنت أدخرها لأقرأها فى أيام فاقتى التى لا شىء فيها سوى اجترار المرارة .

- أتظن أن موتك سيغير من هذا كله شيئًا ؟

- إن السؤال ينبغى أن يكون : هل ستغير حياتى شيئًا من هذا كله ؟ إنى سائر إلى الموت من دون هذا الإضراب .. أو تظن أن الجوع أو العطش هو الذى سيقضى على ؟ .. لا يا سيدى ... إن الهواء لا يصل إلى رئتىّ ... إنى أموت ولست أنتحر ... غداً سأفارق الحياة .. وإذا شرَّحتم جثتى فستجدوا أن إضرابى عن الطعام ليس مسئولاً عن موتى .. لكنى أناشدكم ألاّ تفعلوا .. كفى جسدى ما عاناه ... ودّعنى أيها الضيف الكريم .. إنى مرتحلٌ غداً .

كان يتحدث كمبشر انزاحت من أمامه الحُجُب ... فارقته وأنا أعلم أنّى لن أراه مجدداً .

* * *

فى صباح اليوم التالى أخطرنا المستشفى العام أن المدعو / أكرم عبد اللطيف عمران قد تُوفِّى ، والجثة تحت تصرف النيابة .. ولم يتقدم أحد لاستلامها ، وطلب القسم التصريح بدفنها فى مقابر الصدقة .

* * *

قراءه فى الكتاب

هذا كاتب تسبقه موهبة طاغية ولا يسبقها !.. إن سليقته الحكائية بنت شرعية لحكّائى المقهى والمصطبة والليالى المقمرة فى أجران الحصاد بالقرية ، حيث الزمن ملك للراوى بغير حدود ، وحيث يختلط الواقع المعاش بالخيال المطلق السراح ، وحيث لا يكتمل الحكى إلا عند اكتمال حالة التفاعل والمتعة المتبادلة بين الراوى وجمهوره .. وفى هذه المجموعة يفترض الراوى أن قراءه جلوس أمامه فى "الوسعاية" أمام المصطبة التى يجلس عليها ، يستمتعون بما يحكى ويضحكون على تعليقاته ونكاته وسخريته اللاذعة من أشخاص يعيشون بينهم ، لكن الراوى يدهشهم بما يحكيه عن هؤلاء الأشخاص بطريقته المثيرة ، رغم أن المستمعين يعرفون كل شىء عمن يحكى عنهم .

أما لماذا تسبق موهبة أحمد حمدان صاحبها ولا يسبقها ، فلأن أدوات القص لديه تعود بنا إلى زمن الستينيات ، حيث تذكرنا برواية الأرض للشرقاوى ، وبقصص يوسف إدريس ومحمد صدقى ، وللحقيقة فإننا لا نشعر بأنه يستعير أساليبهم أو أنه يستعيد عوالمهم وزمنهم ،

بقدر ما يستعيد زمنه الخاص وعالمه الذى عاشه فى قريته بجنوب الوادى ، الذى لا يزال يقف - إلى حد بعيد - عند عالم القرية المصرية بدلتا مصر فى الخمسينيات والستينيات .

قوة الموهبة تبدو لديه فى نظرة السخرية اللاذعة إلى هذا العالم من ابن أواخر القرن العشرين ، بكل تعقيداته الثقافية والمفاهيمية الملتبسة ، وبكل انفتاحه على العالم الخارجى عبر وسائل الاتصال الحديثة ، لكنه لا يملك غير كشف المفارقات المدهشة فى واقع لا يزال يراوح مكانه عند منتصف القرن الماضى ، وغير اصطياد اللحظات البسيطة المكثفة بخبرات هذا الزمن السحيق ، خارج إطار الزمن الحديث ، ومع ذلك يظل الوعى الفطرى الموروث فى شخصية الفلاح المصرى يراوغ مستجدات هذا الزمن الحديث ، فتستوعبه الشخصية المصرية فى خزانتها الثقافية ، وتفرزه كثقافة أخرى تكفُل لهذا الإنسان البقاء فى ظل عالم لا يحقق الحد الأدنى من متطلبات وجوده .

وإن كان ثمة من يلقى بظله على موهبته من الكُتَّاب المحدثين ، فهو الكاتب الراحل محمد مستجاب ، بما يتمتع به من روح الفكاهة المغموسة فى سخرية مرة ، ومن رصد لا يمل - ولا يُمَل منه - لتفاصيل التفاصيل فى حياتنا اليومية ، ومن ثرثرة تُشَرِّق وتُغَرِّب فى سياق السرد وخارجه أيضًا ، فندخل فى حكاية تقودنا إلى حكاية ثانية ومنها إلى ثالثة ، ونحن لا نمل ولا نتأفف ، لأن المتعة تكمن فى تلك التفاصيل لذاتها ، حتى ولو لم تكن ضرورية لتصاعد البيان وحبكة التشكيل .

غير أن الفارق بعد ذلك واسع بين عالمىْ مستجاب وحمدان ، وإن كانت منابعهما واحدة ، فعالم مستجاب ملىء بمناطق مظلمة فى غابات النفس البشرية التى شكلتها ظروف موضوعية ظالمة على أرض الواقع ، وكثيراً ما تكتنفها نوازع شريرة حتى نشم فيها رائحة الجريمة والدم أحيانًا ، فيما نجد عالم حمدان – برغم غلظته وقسوته – يقف عند تخوم الرغبات والنزعات الإنسانية الصغيرة ، ولا يخلو من براءة الطفولة ونزق المراهقة وتهور الشباب ، كما لا يخلو من أفانين الشخصية المصرية فى المراوغة "والملاوعة" والتسلل إلى الهدف من الباب الخلفى إن لزم الأمر ، وفى اللجوء إلى النكتة عندما تعييها الحيل للتعبير عن نفسها فى عالم لا تملك القدرة على تغييره .

إن الكاتب – بكل تأكيد – يملك من الحنكة اللغوية والطلاقة التعبيرية ، فوق امتلاكه لرصيد إنسانى من تجارب مثيرة ووعى طبقى بالواقع الذى يكتب عنه ، ما يؤهله ليكون صوتًا قويًا ومتميزًا فى عالم القصة ، بشرط أن يسعى لكى تتوازى موهبته العارمة مع واقع يتحرك حثيثًا نحو عصر جديد يفرض آليات جديدة للقص .. لا للحكى .

عز الدين نجيب

قراءه فى الكتاب

تقرأ أحمد حمدان فتكشف القرية والبلدة والمدينة ، الناس والنخيل والقطط والأسماك ، بل تكتشف نفسك التى تتعرف عليهم ، وكأنها تراهم لأول مرة . ومن دهشٍ أنك حين تبدأ رحلتك مع ذاتك المكتشفةِ ، والمكتشفةَ تكاد تنسى الكاتب ، لتذكر عالمه الذى غمسك فى ينابيعه الرقراقة ، تتذكر عبد اللّه الصياد الذى خرج من معركته بالضد على الخواجة الدكتور بوظيفة ميرى بعد أن كال له من الشتائم ما يكفى للزج به أعوامًا فى السجن .. والعجيب أن نتيجة المعركة هذه لم تكن انتصارًا لعبد اللّه بقدر ما كانت نصرًا للخواجة المثقف الذى تعلم اللغة الدارجة إلى درجة الشتم والردح بها ! كيف ذاك؟ واضح من سياق أحداث هذه القصة أن اللغة المصرية العامية نجحت فى استدراج ذلك الدكتور الباحث إلى روحها الطيبة ، فإذا به يتحول إلى ابن بلد أصيل يذكرنا بأمثولة : قد كظمت غيظى ، وقد عفوت عنك ، وقد منحتك صنيعةً ومالاً جزاء لك على إهانتك لى ، لأن اللّه يحب المحسنين .

هكذا يكون التناص Inter textiality دون أية إشارة مباشرة إلى النص الأصلى . وبالتوازى مع هذا المعنى ، يأتينا مغزى التسوية فى قصة "الفوانيس" حيث يتنازل عم عمران ليومٍ عن صيد السمك (الذى ينفر من رائحة الدخان ومخلفات الشاى التى يلقى بها أعضاء نادى هيئة التدريس) بينما يتنازل الأساتذة عن سلوكهم فى اليوم التالى ، كى يعود السمك إلى موضعه فيتعاطى معه الصياد . والمبهج حقًا أن تُجرى هذه التسوية دون اتفاق صريح أو مفاوضات مملة . فالمصالح الإنسانية المشتركة واضحة للطرفين ما دام "الأنا" مدركًا ومتفهمًا لخصوصية الآخر . هذه القيمة الدرامية تتردد فى تضاعيف نفس القصة على خط من خطوط الواقعية السحرية ، فنرى القطة التى خانها أولادها وهجروها تنتهز فرصة غياب عم عمران لتدير مؤشر المذياع على موجة شرطة النجدة لتتابع بلاغات المفقودين ، ثم تُعيد المؤشر إلى وضعه السابق حين ترى عمران عائدًا من غيبته .

* * *

وددت لو كان المقام متسعًا للإشارة إلى مغزى قصص هذه المجموعة ، ومع ذلك فأنا سأغامر بالإطالة قليلاً لأنوه بالفكرة الخطيرة المضمرة فى القصة "الكوميدية" التى ستجعل القارئ يستلقى على قفاه من شدة الضحك . تلك الفكرة القائلة إن أحداً لا يمكنه الحكم على أحد

(لا تدينوا كى لا تدانوا) فشخصيات القصة يتبادلون المواقع ما بين الذكاء والغباء ، البلادة والمغامرة ، الصواب والخطأ . وهم جميعًا أطراف فى دائرة واحدة ، مركزها الحقيقة ، لكنها ليست الحقيقة المطلقة ؛ لأنه لا توجد فى عالمنا مطلقات . فإذا أردنا أن نخرج من سجن الذاتية فمن الممكن أن نطالب بحقيقة موضوعية .. ماذا تكون ؟ إنها ما نشكله جميعًا بزوايا ووتائر سلوكنا ، بأخطائنا وتصحيح أخطائنا ، وأيضًا بتصحيح التصحيح .

مهدى بندق

الفهـــرس

الكاتب

- أحمد محمود عبد الرحمن أحمد حمدان .
- من مواليد – المنيا – ١٩٨١م .
- تخرج فى كلية الحقوق بقسم تاريخ وفلسفة القانون .
- ثم عمل عضواً بمجلس الدولة .
- يعمل حالياً وكيلاً للنائب العام بمكتب النائب العام بالقاهرة .
- حصل على الماجستير فى القانون العام والفقه الإسلامى المقارن فى عام ٢٠٠٥م .
- نشر عدداً من المقالات بمجلة القضاة منذ ٢٠٠٣م .
- البريد الإلكترونى a m hemdan@ yahoo.com .

* * *

لجنة الكتاب الأول

خيري شلبي [مقرراً]
أمينة زيدان
حسني حسن
خيري دومة
سعيد المصري
سلمى مبارك
سيد الوكيل
شيرين أبو النجا
عز الدين نجيب
كمال رمزي
مجدي توفيق
مجدي جرجس
محمد الشحات
محمد كشيك
مسعود شومان
مصطفى الضبع
مصطفى عبد الله
مهدي بندق
يسري حسان

صدر من الكتاب الأول

١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة في تعدي النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سرًا	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلاموني
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحي
١٠ - لكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقي على دفء الصدف	شعر	عطية حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدي أبو كيلة

١٥ - الأسماء لاتليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	دراسة	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليالى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - بيع الأقنعة	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف
٣١ - كنرحم غابة	شعر	خالد أبو بكر
٣٢ - الآخر	مسرحية	ياسر علام
٣٣ - جمر الأصابع	شعر	أشرف يونس

٣٤ - سقوط ثمرة وحيدة	قصص	تحسن صبرى
٣٥ - أمسيات عائلية	شعر	سعيد أبو طالب
٣٦ - ملامح وأحوال	نقد	ناصر عراق
٣٧ - كتابة الصورة	نقد	محمد مختار
٣٨ - نتاج الخوف	مسرحية	ناصر العزبى
٣٩ - عناصر الإضحاك فى مسرح بديع خيرى	نقد	محمد زعيمة
٤٠ - أولى أول	حكايات	محمد ناصر
٤١ - وهج الكتابة	نقد	حسان بورقية
٤٢ - البنت مصرية	قصص	مصطفى الشافعى
٤٣ - قبل اكتمال القرن	رواية	ذكرى نادر
٤٤ - تجرى بسرعة فائقة	شعر	سحر سامى
٤٥ - تفكيك الرواية	نقد	فتحى أبو رفيعة
٤٦ - نفس طويل	قصص	راندا طه
٤٧ - الميتامورفوسيس فى المسرح الحديث	نقد	مروة مهدى
٤٨ - فى السنة أيام زيادة	شعر	جمال فتحى
٤٩ - ماتحاولش	مسرحية	مصطفى سعد
٥٠ - الفن الفطرى فى مصر	نقد	ضحى أحمد
٥١ - كائن خرافي غايته الثرثرة	شعر	نجاة على
٥٢ - لون هارب من قوس قزح	رواية	منى الشيمى

٥٣ - الشرك	قصص	ليلى الرملى
٥٤ - رغبات	قصص	فارس سعد
٥٥ - لن تدرك سرك	رواية	أحمد عادل القضابى
٥٦ - حاجات تانية	شعر	محمد عبد الحميد دغيدى
٥٧ - خازنة الماء	شعر	فتحي عبد السميع
٥٨ - قص ولصق	قصص	مجدى عبد الهادى
٥٩ - عيون سمارة	أوبريت	فرغلى مهران
٦٠ - السير نحو نقطة مفترضة	نقد	محمد أحمد العشيرى
٦١ - وخز كمان	قصص	أحمد كمال زكى
٦٢ - أثر الأعمال الأدبية فى الملتقى	نقد	فاطمة فوزى
٦٣ - الروائيون المصريون الجدد	نقد	أحمد الشريف
٦٤ - مذكرات دوناكيشوته	قصص	أمنية طلعت
٦٥ - أنساق اللغة المسرحية	نقد	حاتم حافظ
٦٦ - تغيرات فنية	قصص	نائل الطوخى
٦٧ - محاورات الضوء والظل	نقد	عبد الغنى السيد
٦٨ - النقد المعاصر للفكر السياسى	نقد	أشرف منصور
٦٩ - لونه أزرق بطريقة محزنة	قصص	محمد صلاح العزب
٧٠ - أغنية للمساء الحزين	قصص	أيمن الخراط
٧١ - موكب الجنون	قصص	صبرى عبد الحفيظ

العنوان	النوع	المؤلف
٧٢ - حروب وهزائم	شعر	منتصر عبد الموجود
٧٣ - في انتظار شيء ما	قصص	أسامة قرمان
٧٤ - هيمنة الغائب	نقد	علاء الجابرى
٧٥ - حماقة	شعر	يحيى زكريا
٧٦ - بدايات قلقة	قصص	جمال الجزيرى
٧٧ - غواية النص وقراءة اللعب	نقد	سيد عبد الله
٧٨ - قصايد للبنات	شعر	صابر محمد فرج
٧٩ - مجرد شكل	قصص	مجدى عبد المجيد خاطر
٨٠ - حفرة للعب	شعر	مها شهاب الدين
٨١ - بورتريه لجسد محترق	رواية	أحمد عامر
٨٢ - العشق مصباح الجسد	شعر	مدحت علام
٨٣ - شجرة جافة للصلب	قصص	هانى عبد المريد
٨٤ - أغنية عن بندقية	قصص	صلاح عساف
٨٥ - ولد خيبان	شعر	سالم الشهبانى
٨٦ - العولمة وقضايا الهوية والثقافية	دراسة	ماهر الضبع
٨٧ - تماثيل الملح	رواية	محمد كمال حسن
٨٨ - الخيال	شعر	عبد الرحمن آدم
٨٩ - عذراً .. لن أشارك في الاحتفال	شعر	كمال عبد الرحيم
٩٠ - يوم تكلم الظل	قصص	منى محيى الدين

٩١ - الخيال المسافر	قصص	منى محيى الدين
٩٢ - نضارة نظر	شعر	محمود رضوان
٩٣ - الطير فى الشعر المصرى المعاصر	دراسة	عماد حسيب محمد
٩٤ - ثم	رواية	حسين منصور
٩٥ - فركة كعب	رواية	دعاء فتوح
٩٦ - العربات المعطلة	شعر	هانى صلاح العكل
٩٧ - يوم يكون الراعى	شعر	كمال على مهدى
٩٨ - نوبة عطش	شعر	عبد اللطيف مبارك
٩٩ - تحت خط الضحك	شعر	مصطفى الحسينى
١٠٠- باينى كبرت	شعر	أحمد عبيد
١٠١- رابعهم كلبهم	قصص	هيثم خيرى
١٠٢- أسرار البسطامى	قصص	عبد العزيز السماحى
١٠٣- للبحر كلام متأجل	شعر	عبد اللطيف أحمد
١٠٤- تعود أن تموت	شعر	عادل محمد أحمد
١٠٥- لسببٍ ما	قصص	آمال الشاذلى
١٠٦- قلب أراجوز	شعر	إبراهيم الرفاعى
١٠٧- منزل الروح	شعر	إيهاب البشبيشى
١٠٨- لعكم تهتدون	شعر	محمود عبد الرازق
١٠٩ - جايز ترتاح جايز	شعر	سعيد صابر
١١٠ - الرائى وقداس الحجر	شعر	صالح على أحمد


المجلس
الأعلى
للثقافة